aljubtana-
'asfar altakwin almisria



الجبتانا

أسفار التكوين المصرية

الجبتانا

أسفار التكوين المصرية

الأب أبيب النّقّادي والكَنْز المصري المفقود

"الجبتانا"

التقيتُ -أنا كاتب هذه السطور- في منتصف أربعينيات القرن العشرين بالأب أبيب النّقّادي معلمًا وعَرِيفًا لي.

كان الأب أبيب رائدًا لمجموعة من مثقفي المنصورة في ذلك الزمان: الأستاذ عبد الشهيد صادق بانوب (قداسة الأنبا ثاؤوفيلس بعد ذلك)، الأستاذ جودت (والد الشاعر صالح جودت)، الأستاذ بهجت ناظر طلخا الثانوية، الأستاذ سليم أنطون المحامي، والأستاذ محمود الألفي (مدير دار المعلمين بالمنصورة)، والأستاذ علي محمود طه (الشاعر والمهندس ببلدية المنصورة)، والخواجة باسيلي عبده (أحد مزارعي الريدانية الكبار)، والمهندس محمد أبو ريًّا إبراهيم (مهندس بالسكة الحديد أُوفِد مرات إلى إنجلترا... وكان مثقفًا موسوعيًا كالأب أبيب)، والأستاذ محمود سنّان (وكيل النائب العام).... وآخرون.

كان الراهب أبيب يقيم ببيت قديم بجوار كنيسة الريدانية، إلا أنه كان موجودًا مع والدي (علي الألفي - عمدة الريدانية) معظم الوقت؛ حيث لم تكن للأب أبيب أسرة ترعاه، وكان الجميع يلتقون معظم أيام الخميس في المنصورة في شقة خاصة... وكان يلتحق بهم في المنصورة عدد كبير من المثقفين وهواة الموسيقا، منهم ناجي في فترة وجوده بالمنصورة، وصالح جودت في بعض الأحيان... وآخرون.

كان الراهبُ أبيب أكبر الجميع سنّا، فهو -بحسب قوله-من مواليد أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، كذلك كان الجميع يعترفون بأستاذيته لهم؛ ففضلاً عن سِنِّه، كان أكثر الجميع ثقافةً؛ إذ كان متمكّنًا من لغات كثيرة، كما كان قارئًا نَهِمًا لكل ما يصل إلى يده من الكتب والدوريات والصحف...

كنتُ بمثابة الابن الوحيد للأب أبيب... في المرحلة الابتدائية القديمة، والمرحلة الثانوية قرأتُ بتوجيهٍ منه معظم ما في مكتبته التي كانت تحوي خليطًا عجيبًا من الكتب:

نسخة إنجليزية من كتاب "أصل الأنواع" لتشارلز دارون، بجوارها كتاب بعنوان "الردّ على أصل الأنواع التي عرَّبها شبلي شميّل" بقلم الأب جرجس فرج صفير الماروني (وعلى النسخة إهداء من الأب اللبناني للأب أبيب).. مجموعات مسرحيات شكسبير، ترجمات إنجليزية لموليير وراسين وجان جاك روسو، ترجمات إنجليزية لكتابات ألمانية منسوبة لكارل ماركس أذكر منها الأيديولوجية الألمانية وأخرى لهيجل وغيره من الكتَّاب الألمان... كما تجد دواوين أبي العلاء والمتنبّي، و"في الأدب الجاهلي" للدكتور طه حسين، و"الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرازق، ومعظم المعاجم العربية والإنجليزية، وعدة نسخ من القرآن الكريم، بعضها نسخ خطية مهداة إليه من بعض السودانيين (يُلقِّبُ بعضهم الراهب أبيب بالخليفة!؟)، وعدة نسخ عربية وإنجليزية من الكتاب المقدس، والوسيط للسنهوري، وعدة كتب في "الدستوري" و"الدولي العام"، ومعظم كتب التاريخ التي كُتِبَتْ بالعربية والإنجليزية...

بعد أن قرأتُ كتابًا من مكتبته عن الأفلاطونية المحدثة وأفلوطين السكندري، وأثر الإسكندرية على فلسفة توماس أكويناس، وبعد عدة استفسارات منّي... قال:

- "أنا حالة "هيلينستية"، فأنا قبطي مصري من نقادة.. وأمي كاثرين من أسرة يونانية كانت تقيم في المنصورة... وأُرضي حبَّك للاستطلاع فأزيد: أنني نشأتُ شماسًا في كنيسة ما في الصعيد؛ حيث كان للأسرة مطعم صغير في إحدى محطات السكة الحديد... سافرت إلى اليونان، وإيطاليا، والشام، والسودان، والجبل الأسود بيوغسلافيا... اشتغلت بأعمال كثيرة وأجيد لغات كثيرة... واللغات التي أحب القراءة بها هي العربية، والإنجليزية، والقبطية (الديموطيقية).. وخَدَمْتُ في كنائس جنوب السودان، والحبشة، وأوجاندا.

بعد استقراري، خَدْمتُ ببعض كنائس الصعيد... وأثناء تلك الفترة توثَّقَتْ صلتي بالآثاريين المصريين والإنجليز والأمريكان والهولنديين والألمان وغيرهم... كنت أساعدهم في التعاقد مع العمال وبالترجمة لهم... وكنت أساعدهم -كذلك- بتوثيق صلاتهم ببعض الأسر القبطية التي كانت تحتفظ ببعض أسرار الآثار والكنوز... وأذكر من هؤلاء الآثاريين أعلامًا بارزين: جيمس هنْري بِرسْتِد وتلميذه جون ويلسون، كمال باشا، سامي جبرة بك، سليم حسن، خيري بك، ومختار بك، وآخرين لا أذكرهم الآن".

كنت معجبًا بقوة ذاكرته (حتى قبل وفاته في أواخر الخمسينيات عن بضعة وتسعين عامًا)؛ فقد كان يحفظ معظم أشعار المتنبي وأبي العلاء وابن الرومي، وجون كيتس، وشيلي، وبايْرُون، وملِتون، و"ووردث ورْث".. وكان يحفظ ترجمة فيتزجيرالد لرباعيات الخيام، وترجمة السباعي العربية للرباعيات... كان في أحاديثه قادرًا على التلخيص والتعليق على "دون كيشوت"، وعلى "بيت الدُّمْيَة" لإبسن، وعلى شاهنامة الفردوسي، وعلى الحوار بين المذاهب المسيحية، والجديد في فكر البروتستانت... كما كان ضليعًا في الفكر الإسلامي، وكان منصفًا للمعتزلة، والشيعة، وبعض الخوارج...

كان الأب أبيب يحفظ متن "الجبتانا" (أسفار التكوين المصرية)... وكان كثيرًا ما يردِّد أن لمانيتون السمنُّودي (المؤرخ المصري) متنين: أحدهما مشهور وهو "إيجبتياكا" EGYPTIAKA، وهو مشهور لكثرة اقتباس المؤرخين اللاحقين منه، واعتمادهم عليه في تحديد الأسرات الفرعونية الحاكمة... لهذا وُجِدَتْ أجزاء كبيرة من بردياته، والثاني EGYPTIANA وهو غير مشهور؛ لمصريته العريقة، ولأنه يُعطي الانطباعَ بأن الفكر العبراني والسامي مأخوذ عنه، بل هو يؤكد ذلك، وكان الأب أبيب ينطق المتن الثاني باسمه المشهور في القبطية "الجبتانا".

و"الجبتانا" متن مقدس؛ أي "سُورْتا" (سورتا: كلمة مصرية قديمة انتقلت إلى الساميات بنفس الاستخدام المصري؛ بمعنى المتن المقدس، والكلمة المصرية وتعديلاتها السامية موجودة في كلمة "سورة"، وفي الساميات تقترب "سورتا" أو "سورة" من "سِيـڤِر" أو "سِفْر".. وفي فقه اللغة للدكتور لويس عوض إشارة لقانون التبادل بين الفاء والڤِي والواو).. والجبتانا متن مقدس -كما قلنا- يروي قصة انبثاق الآلهة، وظهور الآلهة في مصر، وبداية تجمُّع السلالة المصرية حول وادي النيل، وبدء ظهور الحضارة المصرية: استنبات الحبوب، أدوات الزراعة، استئناس الحيوان، تجفيف المستنقعات وزراعتها... واستمرت الجبتانا تروي جذور الحضارة المصرية، حتى زمن مصرع "أوزيريس" الناسوتي وتحوُّله إلى صورة لاهوتية، ثم زوال الاتحاد الأول، وبداية الاتحاد الثاني على يد "مينا نارمر".

كانت "الجبتانا" -إذن- نصـًا مقدسًا حَفِظَهُ مانيتون عن الكهنة الذين حفظوه عن أسلافهم، وإمعانًا في قداسة "الجبتانا" فإن مانيتون يرى في المنام أن رب الأرباب يأمره بأن

يعيد تسجيل الجبتانا عن المتون القديمة التي كانت تحويها... وينصاع مانيتون لما رآه في سفر الرؤيا الخاص به.. ويعيد كتابة الجبتانا التي يعتبرها من وحي الآلهة أحيانًا، وأحيانًا أخرى يعتبرها متونًا قديمة سجلها قُدامى المصريين على الألواح وعلى الأُستراكا وعلى جُدُر المقابر القديمة.

كانت الجبتانا نصًا مقدسًا، وكان النص محفوظًا من قِبَل الكهنة يردّدونه في المعابد، وتُتلى أجزاءً منه في القدّاسات.

ولمّا استقرّت المسيحية في مصر، بعد عصر الشهداء، حدث لونٌ من الاضطهاد لمن ظلّوا على العقائد القديمة؛ فلاذ المضطهَدُون بدروب الصحراء وكهوف الجبال، وعكفوا على ترديد "الجبتانا" كنص مقدس يربطهم بما يؤمنون به.

ودخل الإسلام واللغة العربية مصر، وشعر المصريون بالخوف على اللغة المصرية وما يرتبط بها من تراث؛ فعادت "الجبتانا" إلى الظهور، تُرَدَّدُ باعتبارها نَصًّا مقدسًا محسوبًا على القبطية (مثلما اعتبرت الكنائس والمجامع المسيحية الغربية أرسطو جزءًا من فكر المسيحية الغربيّة)... وهكذا ظلت الجبتانا تُرَدَّدُ في المواسم والاحتفالات القبطية، ويستخدمها بعضُ الرهبان المعلمين كنص يدربون عليه الطلاب في الكتابة والقراءة حتى نهاية الزمن الفاطمي في مصر.

كان الراهب أبيب يحفظ "الجبتانا" عن ظهر قلب، بالصورة التي وصلت بها إليه، عبر خمسة وخمسين جيلاً (كما كان يقول)... كان يرددها بالقبطية الحبيبة إلى نفسه، والتي كان يُعْتَبَرُ أحد فقهائها. (كثيرًا ما ردد أن المترجمين الأجانب للخطوط المصريّة، كانوا يلجئون إليه في بعض الأحيان)... وكان يترجم ما يردده لنا بالعربية... وحَفَظْتُ عنه الخط العام للحوادث، كما حَفَظْتُ بعض الأسفار، وسجّلْتُ الكثير كتابةً.

بدأتُ -وأنا طالب في دار العلوم في الخمسينيات- جمع وكتابة متن "الجبتانا" كاملاً، وأطْلَعْتُ الراهب أبيب على عدة كراسات فوافق عليها... وكنت قد حررّتُها في ستة عشر سفرًا؛ كل سفر يحتوي على خمسة إصحاحات، وفق ما يحفظه الأب أبيب...

توفـــي الراهب أبيب في صيف ١٩٥٩.. وبعد أن تخرّجت في دار العلـــوم أعـــدْتُ الصياغة من واقع كراساتي، وكراسات الأب أبيب، وبرعاية الأنبا ثاؤوفيلس (عبـــد الشـــهيد صادق بانوب).

ثم جمعتني الظروف بالأستاذين إميل دوس ونصيف بطـــرس المحـــاميين؛ فأمـــداني بسخاء بكل ما كُتِب عن العصر العتيق وما قبله باللغتين العربية والإنجليزية... وكانت لديهما فكرة عامة عن "الجبتانا" من أحد المعمَّرين الأقباط من ببا في بني ســـويف، وأمكنـــاني مـــن الاتصال به عن طريق الأستاذ منير جرجس المحامي في بني سويف... وتبيّـــنْتُ أن مـــا يحفظه ذلك الببلاوي لا يختلف كثيرًا عما كان يحفظه الأب أبيب، وإن كانت رواية الأب أبيب أكثر دقـــةً واتـــساقًا.

وأعدت صياغة الجبتانا عدّة مرات، بعد مراجعـــات للتـــاريخ القـــديم، ومراجعـــاتٍ لكراساتي وكراسات الأب أبيب، ولكل ما نُقِلَ عن الكتّـــاب الكلاسيكيين من أمثـــال: هيكاتـــا المالطي (٥٥٠ ق.م)، هيرودوتس (٤٥٠ ق.م)، هيكاتـــا الأبـــدري (٣٠٠ ق.م)، مـــانيتون السمنودي (٢٧٠ ق.م)، ديودور الصقلي (٦٠ ق.م)، استرابون (٢٧. م)، جوزيفوس (٣٧.م) بلوتارخ (١٢٠.م) وآخرين.

وبعدُ؛ فهذه هي الصورة الأخيرة من الجبتانا، انتهيت منها في السابع من هاتور سنة ١٧٠٥ قبطية الموافق للسادس عشر من نوفمبر سنة ١٩٨٨ م.

علي علي الألفي

موجه عام في التعليم

مصر والأديان

"مقدمة في الأنثروبولوجي وعلم النفس الاجتماعي"

تشكَّكُ كثيرون فيما نُسِب إلى "هيلين كِلر" الخرساء العمياء من أقوال تَنُمّ عن فكر عميق... ويعتقدون أن ما نُسِب إليها، إن هو إلا فكرُ صاحبتها المتحدثة باسمها... وسند هؤلاء المتشككين فيما ذهبوا إليه؛ أن "المخ البشري" الذي يعمل برموز محدودة لا يُنتج إلا فكرًا محدودًا ساذجًا؛ إذ إنه كلما اتسعت إمكانية المخ على التعامل برموز كثيرة فإن هذا يؤدي إلى عمليات عقلية كثيرة ومعقدة وعميقة... ولعلّ هذا يعلّل لعدم ظهور عباقرة من الخرس، بينما ظهرت أعداد كبيرة من العباقرة العميان.

كان "الحيوان البشري" فيما قبل العصر الحجري القديم (الباليوليتي) يعيش في أُسَر صغيرة كأسر الحيوانات الأخرى؛ وبالتالي كان يستخدم الإشارات، وقلّ استخدامه في ذلك العصر للرموز الصوتية، الأمر الذي أدى إلى تحجيم العمليات العقلية عنده؛ وذلك لأنه كالأخرس لا يستخدم رموزًا كثيرة.

ومن المفيد -في هذا السياق- أن نذكر واقعة مرّ بها بعض الأنثروبولوجيين؛ فقد عثرت بعثة علمية بريطانية بالقرب من جُزُر الكريسماس في المحيط الهادي، وفي العروض الشاسعة الواقعة بين شمال أستراليا وجنوب شرق آسيا على جزيرة صغيرة، معزولة داخل أرخبيل مكوّن من جزر بركانية وعوائق من حواجز مرجانية، وكان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر... وعثرت البعثة في هذه الجزيرة على بشرٍ لا يزالون يعيشون حضارة العصر الحجري القديم.. كانوا في غاية السذاجة... يشيرون غالبًا، ولا يُصْدِرون إلا عددًا محدودًا من الكلمات: الشجرة، الماء، السلحفاة، السمكة... ولا يعرفون من الأعداد إلا "واحد" و"اثنان"، فإن أرادوا ثلاثة قالوا: واحد واثنان، وإن أرادوا أربعة، قالوا اثنان واثنان... وهكذا... وكذلك كانوا بلا أسماء وبلا عقيدة من أي نوع.

وفي العصر الحجري القديم عاشت أصول الجنس المصري في السهوب الخضراء التي تصحّرت بعد ذلك، ونعرفها الآن باسم الصحراء الشرقية والغربية.. وكانت هذه الأصول

في حالة مشابهة لحالة الأسر الحيوانية ذات الميل الاجتماعي (كالقِرَدَةِ العليا)، وكانت هذه الأسر المصرية الأولى تعتمد على الإشارات (كالخُرس)، وتنطق ببعض الأصوات القليلة.

كان الذكر الأكبر والأقوى من هذه الأسر يطرد الذكور الصغيرة الضعيفة إذا ما كبرت وبدأت التحرش الجنسي بالأمهات (وهذا ما يعتبره فُرويْد جذر عقدة أوديب).. كذلك تطرد الأمهاتُ القويات الإناث الصغيرات حين يَبْلُغْنَ ويبدأن التحرُّش الجنسي بالذكور البالغين من الآباء (جذر عقدة إلِكْترا).. فيُضْطَرُّ الصغار من الذكور والإناث إلى الفرار من الكبار... ولكن يظلون في الأجوار مدفوعين بحنين للكهف الذي خرجوا منه، ومدفوعين - أيضًا- برغبة الاحتماء بالجماعة؛ وهي رغبة غريزية في معظم الأنواع.. وهكذا تتجمع أجيال جديدة وتتعارك وتتزاوج؛ فتنشأ العشيرة.

ويزداد التصحّر... ويقل الصيد... وتحدث معارك بين العشائر التي تتنازع البقاء... ويزداد تلاحم العشائر والقبائل ذات الأصول الإثنيّة المشتبكة... وتلجأ بعض العشائر والقبائل إلى وضع علامات مشتركة على الوجوه؛ للتمايز والتعارف (عادةً ما كان يحدث ذلك التّشريط على الوجوه بمخالب الطيور)، وتتعقد الأمور، وينمو عدد الرموز اللغوية، ويزداد نشاط العقل؛ وتتقدم الحياة.

ويأتي عصر غيرُ مطير، ويزداد الجفاف، وتهرب بعض العشائر في اتجاه مناقع النيل؛ حيث الماء والخضرة والفرائس والثمار، وكانت هذه العشائر تخشى الاقتراب من النيل؛ حيث تكثُرُ الحيوانات المفترسة المتربصة، فضلاً عن أخبار غامضة حول غيلان مُدمِّرة كأبي الهول ومسوخ الأوثان؛ وهي ذات وجوه بشرية على هياكل حيوانية... وبالرغم من ذلك، تتقدم بعض العشائر إلى مناقع النيل، يحدوها حب البقاء، وتحتاج تلك الجماعات، داخل بيئة النيل كثيفة الأدغال، إلى الأصوات؛ إذ لم تَعُدْ الإشارات والإيماءات تُغني، وهكذا ابتكرت تلك العشائر بحناجرها نداءات التمايز والتعارف والاستغاثة، وهي -عادةً- من مقطعين مثل: GEP-TO جبْ_تو أو مثل: NE-LO نِي لو... وهكذا تقدمت عشائر النّيلو NELO والجيبتو GEPTO لتستقر على شواطئ النيل.

ومع ازدياد التصحّر والجفاف في السهوب الغربية والشرقية، قَدِمَتْ إلى مناقع النيل عشائرُ جديدة منتخبة انتخابًا طبيعيًا.. واصطدمت العشائر الجديدة بالقديمة، ثم انصهرت تلك

العشائر وتزاوجَتْ.. وقابل الجميع مشاكل البيئة الجديدة: الأرض والأدغال، الماء، الحيوان، الإنسان... وأدّت هذه المشاكل إلى مزيد من التجمع والتعاون والتفاهم والحروب؛ فزاد نمو اللغة، وزاد نموّ الفكر.

وظهر المنظِّمون والمسيطرون... وظهر رجال السياسة والإدارة والحرب... وظهر متخصِّصون في إشارات القبائل وعلاماتها التي تُشرَط بها الوجوه، وتُشرّط بها -أيضًا- الرموز التوتمية للعشائر، من سواري جذوع الأشجار، أو الأعمدة الصخرية التي كان يستند إليها الأجداد... ويتحوّل هؤلاء إلى رجال التوتم، ثم إلى رجال الآلهة التي تقف خلف التوتم، ثم يتحولون أخيرًا إلى "رجال الله" من الكهنة.

والمصري القديم -كغيره من البشر- يرفض الموت والفناء؛ لهذا -لمَّا ارتقى فكره في العصر الحجري الحديث (النيوليتي)- آمن بإله "مطلق خالد خالق" لأن ذلك "المطلق الخالد الخالق" يعطيه حياة أبديّة خالدة؛ لأنه قادر على بعثِهِ في الآخرة.

وتزداد حصيلة المصري من اللغة والفكر؛ فيفكر في المعنويات والجماليات، ينظر إلى سمائه الصافية وقبتها الزرقاء التي تجوبها الشمس من الصباح حتى المساء، ثم تعود من جديد، لتُؤْذِنَ بيومٍ جديد.. وينظر المصري إلى سماء ليلهِ فيجدها لا تقلّ بهاءً؛ إذ هي مرصعة بجواهر النجوم.. وتزدان بقمر منير، يبدأ هلالاً، ثم يكتمل فيصير بدرًا، ثم يعود هلالاً، ثم يختفي ليظهر في دورة جديدة.

ينظر المصري إلى هذا البهاء الذي في "الأعالي" فيؤمن بأن "المطلق الخالد الخالق" لا بد وأن يكون "مجده في الأعالي".. إن لله عرشه في الأعالي، كما أن للمتسلط الأرضي عرشه، وللمتسلط الأرضي حاشية ومعاونون؛ لهذا ينبغي أن يكون للمتسلط "الذي في الأعالي" تاسوعَه أو ملائكته، ولا بد لهؤلاء الذين في الأعالي من أن تكون لهم أجنحة.

انتقلت فكرة تاسوع الملائكة والمعاونين من الفكر المصري إلى الفكر السامي... كما انتقلت معها فكرة أجنحة الملائكة والأرباب.

ارتقت مصر بفكرها اللاهوتي الذي غرس في المصري قلبًا آخر، هو الضمير، الذي يدفع الإنسان إلى الخير، والذي يزجره ويؤنبه إذا همّ بالشر... وبالتدريج نقل المصريون

مبادئهم الأخلاقية والعرفية والقانونية، من كونها مجرّد "بنية عليا" أدت إليها "بنية تحتيـــة"، إلى قواعد لاهوتية مقدسة، ثم عادوا فجعلوها نصوصًا مقدسة إلهية كتبها تحوت (إله الحكمة) على الألواح ليلتزم بها كل من عاش على أرض مصر.

ومن خلال ملحمة إيزيس وأوزوريس، صوّر المصري الصراع بين الخير والشـر، ولا بد وأن ينتصر الخير في النهاية.. كذلك أبدع المصري من خلال ملحمة "الجبتانا" -التـي نقلها إلينا مانيتون السمنودي -مفردات لاهوتية راسخة أخذها اللاهوت العبرانـي والسـامي: انبثاق الآلهة والعالم، اليوم الآخر.، الثواب والعقاب، الجنة والنار (البـارادُويـس: معناهـا الحرفي بيت النعمة، جـي هنوم: معناها وادي العذاب = الفردوس وجهنم)، ساتان وأصـلها سِتْ في القصة الأوزيرية، ثم نُوِّنَـتْ فصارت ساتان، عوزير هو أوزير وهو عوزير إيـل؛ أي عزرائيل في الفكر العبراني، آمين، هي نفسها "آمون" المصرية التي أُمِيلت إلى "آمـين"، ونطق بها كل البشر، نِبـُو المصرية هي المبارك أو المقدس أو النبي، جابار: رسول التاسوع (ربما كان اسمًا وصفيـًا لتحوت) هو نفسه "جبرائيل" ملاك الرب. هيلا هيلا.. كانت تُـردَّدُ في المزامير المصرية المقدسة (راجع متن الجبتانا)، وكان الأب أبيب مـُصِرًّا على أنها هي نفسها "هلـّلويا" التي تُخـْتـتَمُ بها بعض المزامير والفقرات في الكتاب المقدس، ميخـانوت: يؤكد الأب أبيب أن وضع البادئة "ميخا" في صدر بعض الأسماء المصرية مثـل: ميخـانوت (شبيهة الآلهة نوت) قد انتقل إلى الساميات في مثل "ميخائيل" (شبيه الله) بل إن لفظـة ميخـا المصرية (ميخا . ميشا . ميشو) قريبة صوتيًا من "مثيل" العبرانية.

إن تأثر الفكر العبراني السامي بمصر أمر متفق عليه بين جميع المؤرخين، ويشهد به العهد القديم: "... تأثر موسى بكل حكمة المصريين؛ فكان مقتدرًا في الأقوال والأفعال" -آيـة ٢٢ من الإصحاح ٧ من أعمال الرُسل، ".. فاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنـي المشـرق وحكمة مصر"- إصحاح ٤ ملوك أول.

وتتراكم اجتهادات الكهنة، وتزداد رغبتهم في توسيع سلطاتهم وتحكّمهم في مصـائر الموتى بفرض إتاوات باهظة على أولياء الموتى، ويبالغون فـي أسـعار التوابيـت ومـواد التحنيط، وتعقّدت المراسم والطقوس الدينية، وزادت أسعار متون التوابيت التي تُنقش داخـل التوابيت، وكذلك تماثيل الشوباشي (تماثيل صغيرة في حجم الإبهام توضع كميات كبيرة منها

مع الميت في تابوته؛ لتتضرع إلى التاسوع من أجل الميت، وكلمة شوباشي تعني المـرددين، وهي لا تزال موجودة في العامية المصرية: شُوبَش)، وكذلك الأبواب الوهمية (التـي تـدخل منها الكاوالبا للاتصال بالجسد) والأقنعة التي ترشد الكاوالبا.. ثم ابتكر الكهنة فكرة التماثيـل الشبيهة بالميت، والتي توضع أمامها موائد القربان من أجل روح الميـت... وبـدأت فكـرة الأوقاف من أجل موائد القربان وخدمة قبر الميت وحراسـته، واختـلّ النظـام الاقتصـادي الاجتماعي، واضطربت الأمور في مصر، كما كانت مضطربة في كـل مكـان؛ إذ كانـت البشرية كلها تنتظر مُخلّصًا...

وظهرت بشارة المسيح... ودخل الجبتوس (الأقباط أو المصريون) في العقيدة الجديدة التي تفتح أبواب السماء "لأنقياء القلوب" والفقراء، لا لأصحاب التوابيت الفخمـة وأصـحاب السلطان من عشّارين ومكّاسين، وأُعجب المصريون بالكهنة الجدد (الرهبان)؛ فهم يتحـدثون نفس اللغة المصرية، بل إن متونهم المقدسة تُتلى بنفس اللغة (ولا يضيرهم أنها تكتب بحروف يونانية؛ فهم أميون يسمعون ولا يقرأون).

ويجاهد المصريون، منذ القديس أنطوان والقديس بولس ضد بطـش الرومـان، ثـم يجاهدون من جديد لاحتواء الخلاف حول طبيعة السيد المسيح بـين آريـوس وإثناسـيوس، ويستقر الفكر القبطي في النهاية باستقرار فكر مَجْمَع الإسكندرية المقـدس، بـل إن القبطيـة المصرية أثّرت تأثيرًا لا يُنكر في الفكر المسيحي العالمي.

وتنزوي العبادة المصرية القديمة أمام تقدم النصرانية، لكن يظل الجميـع يتحـدثون المصرية.. ويُرَدِّد المصريون متن "الجبتانا" ويقدسونه؛ خوفًا على لغتهم التي كانوا يعتبرونها "توتم" مصريتهم.

ثم يأتي الإسلام.. وتأتي معه اللغة العربية... وتحاول اللغة المصرية المقاومة.. لكن بدخول المصريين في الإسلام، تحتل اللغة الجديدة الساحة، وتنزوي اللغـة المصـرية فـي الكنائس والقداسات وبين العائلات القبطية (حتى العصر الفاطمي).. وظل المصريون الأقباط يرددون "الجبتانا" كمتن مقدس يربطهم باللغة كما يربطهم بالتاريخ.

وحين وصل نابليون إلى مصر، فكّر في بعث اللغة المصرية (الديموطيقية = القبطية) "حتى تكون مصر جزءًا من عالم البحر المتوسط كفرنسا أو إيطاليا أو اليونان" ولكن فكرة نابليون باءت بالفشل؛ لأن اللغات -كالأديان- تتسللُ إلى عقول الناس وضمائرهم بدوافع مختلفةٍ، منها العادة، والمصلحة، وضغط السلطة والمجتمع...

إن كثرة تعاقب الأديان على المصريين قد علّمتهم التسامح، وأن هناك طرقًا كثيرة تؤدي إلى الله... كان وزير الملك الناصر الأيوبي مصريًا قبطيًا، كما كان يوسف العبراني وزيرًا لفرعون، ويشهد المؤرخون بأن الأقباط (المسيحيين) كانوا يستعيرون -في أعيادهم- البُسط والشمعدانات من المساجد، وبأن الأقباط (المسلمين) كانوا يستعيرون نفس الأشياء من الكنائس في أعيادهم، وكانت الأديان الثلاثة تنظِّم موكبًا مقدسًا على نيل القاهرة إذا ما تأخر الفيضان، يتقدمه السلطان، ثم الخليفة وقاضي القضاة وشيخ الأزهر وشيوخ الكنيسة المصرية، ثم أحبار اليهود... يأتي بعدهم حَمَلَةُ الكتب المقدسة الثلاثة.. وتُرَتّلُ التراتيل وتُقام الصلواتُ باللغات الثلاث.. ويضرع الجميع إلى الله، باسم الأنبياء الثلاثة الغرباء؛ كي يفيض النيل وتزدهر البلاد.

ويُصِر جيمس هِنري بِرِستد، وكثيرون من دارسي الحضارات، على أن مصر هي "صانعةُ ضمير العالم المتمدن"، وأن المتون المصرية هي جذر المتون العبرانية والسامية... ومن المقطوع به -بين المؤرخين- أن نصائح المصري الحكيم المعمّر "بِتاحْ حُتِبْ" هي أصل سفر المزامير، كما أن حِكَم "أمِين مُوبى" هي أصل سفر الأمثال. وحين ضعفت الدولة العثمانية، وصارت "رجلَ أوربا المريض" حاولَتْ أن تغرس في الأرض المصرية بذور الشقاق بين الأقباط المسلمين والأقباط المسيحيين؛ فأصدرتْ قانونًا صاغه "همايون كبير"، يُضيّق على الأقباط المسيحيين في بناء الكنائس وتجديدها وإقامة أسوارها وأبراجها ونواقيسها، إلا أن "عُنصري الأمة المصرية" فوّتوا على الأتراك فرصة زرع الشقاق... بل صار اسم "همايون" والخط الهمايوني مصدرًا للسخرية وإشاعة الفوضى على لسان عامة المصريين.

إن مصر هي التي أدخلت الحياة الأبدية والبعث والخلود إلى الفكر العبراني السامي، فأقدم أسفار العهد القديم يعبّر عن الأمل في استمرار حياة القبيلة استمرارًا عضويًا بدائيًا، كما

في مملكة النمل أو النحل أو غيرها، دون ما اهتمام بعالم آخر...". وأما أنت (يا إبراهيم) فتمضي إلى آبائك بسلام، وتُدْفنُ بشيبة صالحة" (آية ١٥ إصحاح ١٥ تكوين)، "... لأكون إلهًا لك (يا إبراهيم) ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك من بعدك، أرض غربتك" (٧ -٩ إصحاح ١٧ تكوين) ".. أكرم أباك وأمك لتطول أيامك على الأرض" (١٣ إصحاح ٢٠ خروج) "فإن سَلَكْتَ في طريقي (يا سليمان) وحَفَظْتَ فرائضي ووصاياي، كما سلك داود أبوك فإني أطيل أيامك" (١٤ إصحاح ٣ ملوك أول) "ليس للإنسان مزيّة على البهيمة؛ لأن كليهما باطل، يذهب كلاهما إلى مكان واحد، كان كلاهما من التراب، وإلى التراب يعود" (٢٠ إصحاح ٣ جامعة). "أسْلَمَتْ جميعًا إلى الموت... إلى الأرض السفلى مع الهابطين في الجب" (١٤ -١٧ إصحاح ٣١ حزقيال) وواضح أنه لا توجد إشارة لعالم آخر أو لحساب أو جنة ونار.

إن دوام اختلاط العبرانيين بالفكر المصري فتح لهم باب البعث والخلود... ولعل أول إشارة واضحة للبعث والآخرة نجدها في سفر دانيال، وهو متأخر زمنيًا؛ فقد ورد في الإصحاح الثاني عشر: "وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار والازدراء الأبدي" (ونلحظ أنه يستخدم "كثيرون" ولم يستخدم "جميع")... كان العبرانيون أقرب إلى الحياة الوحْشيّة الغريزية، فعبّروا عن استمرار النوع بطريقة مباشرة... أما المصريون -الذين ارتقوا في معراج الحضارة- فقد صاغوا الأمور صياغة أخلاقية مثالية، من خلال الإيمان بالبعث، وتعلم العبرانيّون -بعد ذلك- من المصريين قيمة الإيمان بالبعث والخلود.

ولعل هذه الفقرة من "جوزيف وودْ كِراتْش" في كتابه "الإنسان الحديث ومزاجه" توضّح الأمر "إن كون الإيمان باليوم الآخر مرافقًا للجنس البشري... يثبت أن الرغبة في حياة بعد هذه الحياة رغبة عامة؛ فالرغبة في الخلود هي احتجاج أو اعتراض على قوانين الطبيعة التي لا تُدخِلُ مطالب وغايات الإنسان في حسابها... ففي لحظة ما يتبين للإنسان أن الغاية من وجوده منحصرة في "استمرار النوع"؛ إذ لا غاية من وجوده كفرد... فالخلود -الذي هو أساس الدين -له وظيفة أساسية، وهي أنه صيغة تُمكّن الإنسان وتؤهله أخلاقيًا لحمل فضائل، هي في الأصل غرائز حيوانية، كإيثار الأبناء والتضحية في سبيلهم أو في سبيل الوطن (النحلة تموت دفاعًا عن الخلية التي تنتمي إليها.. أليس هذا استشهادًا في سبيل

الوطن؟!!).. إن ازدياد وعي الإنسان بفرديته وتميزه عن بقية الكائنات هو الذي يجعله يبحث عن دافع أخلاقي يقوم مقام الغريزة التي يكتفي بها الحيوان..".

ويتضح من تحليل "جوزيف وود كِراتْش" أن الشعوب الأقرب إلى البداوة والوحشية تكون أقرب في دوافعها إلى الغرائز الحيوانية المباشرة (استمرار النوع)، أما الشعوب المتمدنة فإنها تؤمن بالبعث والخلود لتربط بهما قيمًا معنوية (كالتضحية للأبناء والوطن) تُحلُّها مَحلَّ الغرائز البدائية... وهكذا سَبَقَتْ مصر حضاريًا... وهكذا لقَّنَتْ العالم الإيمان بالبعث في عالم آخر.

ويَرِدُ سؤال، من وحي الموضوع: هل تختلف الفلسفة الدينية الشرقية عن الفلسفة الدينية الغربية؟ وهل لذلك أثره على الحقل المعرفي (الإبستمولوجي) هنا وهناك؟ وهل لهذا أثره -حاليًا- على التقدم الغربي والتخلف الشرقي؟

ونجيب فنقول: "إن "الإيمان الشرقي" كان حريصًا على "المزج بين الله والعالم"؛ وبالتالي فإن "العالم إلهي"، وإن "حركات الطبيعة إلهية"، وإن رتابة حركات الطبيعة لا يعود لكونها تخضع لقوانين أزليَّة، بل يعود لصيرورة الإرادة الإلهية ودوامها...

وبالتالي، فلا مبرر للسؤال عن العلَّة؛ لأن الإجابة معروفة سلفًا، وهي أن "الله قد أراد ذلك"... فإذا فكر العقل الشرقي في السؤال الخالد: "لماذا تسقط التفاحة إلى الأرض"؟ تكون الإجابة: "لأن الله يريد ذلك".

أما العقل الغربي، المرتكز على العقل اليوناني النقدي، فقد حرر الطبيعة وجعلها في أسرِ قوانينها (التي هي وصف لما يقع)... ومن هنا آمن العقل الغربي بالعلِيَّة (السبب والنتيجة)؛ ومن هنا آمن العقل الغربي بأن الكون ظاهرة طبيعية تخضع لقوانين يسعى للكشف عنها وترويضها في خدمة الإنسان... ومن هنا كانت إجابة العقل الغربي عن السؤال: لماذا تسقط التفاحة! هو الوصول لقوانين الجاذبية".

ويجيب الأستاذ سلامة موسى في كتابه عن "حرية الفكر" إجابة مشابهة: "الإغريق أول أمة نَزَعَتْ نزعة علمية لسببين: الأول: أنها لم تدمج الله في العالم، فالعالم قديم، بل إن الآلهة عندهم قد يعجزون عن تحقيق ما يريدون (كالبشر)... والثاني أن ديانة الإغريق لم

تتحول إلى شريعة، بل كان هناك -دائمًا- فصل بين الدين والقانون.. ولعل عبارة المسيح "دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله" تأثر منه -عليه السلام- وإقرار بالاتجاه الإغريقي الروماني في الفصل بين الله والعالم".

وبعد:

فإن مصر هي "فجر ضمير العالم" وهي مَعْبَرُ التواصل الفكري والحضاري، ولا توجد أمة أولى منها بذلك: ففي معابدها صيغت المتون المقدسة الأولى، التي أخذت منها المتون العبرانية والسامية... وإلى أرضها لجأ إبراهيم أبو الأنبياء، ولجأ إليها يعقوب والأسباط، ونشأ موسى على شواطئ نيلها، وتربى وتعلم في معابدها، بل من لغتها أخذ اسمه "موسى" (مُسْ أو موسى: تعني "وليد" أو ابن، وتجدها في مثل "تُحوتْمسُ أي وليد أو ابن تحوت إله الحكمة، أو في مثل رامسيس أي "رع موس" أي ابن الإله "رع")... وإلى مصر لجأت العائلة المقدسة (العذراء مريم، والطفل يسوع الناصري، ويوسف النجار)... وعاش فيها، ودُفن في ترابها الإمام الشافعي، الذي يتبع مذهبَه قرابة نصف مسلمي العالم... وفيها -أيضًا- الأزهر الشريف أهم قلاع الإسلام ومدارسه في العصر الحديث.

علي الألفي

"الجبتانا" وإغفال الآثاريين للكنوز الديموطيقية والقبطية

"الجبتانا" متن يضم "أسفار التكوين المصرية"، جمعه مانيتون السمنودي (٢٧٠ ق.م)، وكُتِبَتْ نُسخ منه بالديموطيقية أولاً، ثم بالقبطية بعد ذلك... وكان الأب أبيب النقادي (راهب في كنيسة الريدانية بجوار المنصورة) يحفظ الجبتانا عن ظهر قلب، ويرددها لتلاميذه ومريديه مع ترجمتها إلى العربية.

المؤرخون الكلاسيكيون يذكرون أنّ لمانيتون متنين: "إجبتياكا" وهو تاريخ للأسر والملوك الفراعنة، والثاني "إجبتانا" وهو متن جمعه مانيتون من محفوظات المعابد المصرية عن "أسفار التكوين المصرية"؛ أو ربما كان مدونه شعبية دينية تحكي قصة الشعب المصري.. وكان الراهب أبيب يشبِّه الجبتانا بشاهنامة الفردوسي وبالعهد القديم، وكان الأب أبيب يلحُ على أن العبرانيين قد اقتبسوا الأجزاء الأولى من "الجبتانا" في أسفار موسى وبدايات العهد القديم، ونسجوا تاريخهم الخاص على منوال الأجزاء المتأخرة من "الجبتانا"... والذي بقي مشهورًا من مانيتون هو "إيجبتياكا" (تاريخ الأسر والملوك)؛ وذلك بسبب اعتماد المؤرخين الكلاسيكيين عليه... أما "الجبتانا" (أسفار التكوين المصرية) فقد تناساها الكتّاب الكلاسيكيون؛ لأنها لا تتحدث عن الأسرات الحاكمة والملوك، والتاريخ القديم تاريخ للحكام والملوك، كما أن السيطرة اليهودية على مكتبة الإسكندرية القديمة، أغفلت الجبتانا عن عمد؛ لإبعاد المتخصصين عن المتن الذي أُقْتُبِستْ منه التوراة...

كان الأب أبيب –رحمه الله– دائم الإشادة بالأستاذ جيمس هِنْري بِرِسْتِد؛ حيث يشاركه الاعتقاد بأن العبرانيين سلبوا الأفكار المصرية ونسبوها لأنبيائهم.. كما كان الراهب أبيب دائم التنديد بالأستاذ جون ولسون (أحد تلاميذ بِرِسْتِد) الذي كان يساند الاتجاهات الخرافية الشعبية لدى الأمريكيين الإنجيليين، والذين يؤمنون بعودة المسيح من أرض الميعاد؛ ومن ثم يساندون اليهود الإسرائيليين ويطمسون كل ما يثبت أو يشير إلى سلب اليهود للفكر المصري، وكذلك الفكر البابلي الآشوري.

قسّم هيجل وماركس وأسَايا بيرلِن الحضارة إلى بنية دنيا Infra Structure أي الأساس المادي للحضارة من زراعة وصناعة وأدوات وعلاقات إنتاج... وهذا الأساس

المادي يُفرز بنية عليا Super Structure ثقافية وقانونية ودينية تناسب البنية الدنيا... وكثيرًا ما ردّد الأب أبيب هذا التقسيم مشيرًا إلى أن البنية الدنيا للمجتمع المصري القديم أفرزت البنية العليا من قوانين ودين وثقافة... أما الرعاة العبرانيون -الذين كانوا يترددون على مصر- فإنهم أخذوا منها البنية العليا وبخاصة الدين والقانون، ولمَّا لم تكن للعبرانيين بنية دنيا تفرض تلك الشرائع والأديان؛ لهذا لجأ زعماء العبرانيين إلى نسبة الدين والشرائع إلى القوى العلوية، لكي يستطيعوا فرضها على قبائلهم... ولهذا كان اعتقاد العبرانيين "ببدعة الرب الواحد المصرية" اعتقادًا هشًا، سريعًا ما تركوه بعد غياب موسى؛ حيث أعادهم السامري إلى عبادة العجل، باعتبارها عبادة لتوتم الرعاة.

أجاد الأب أبيب لغات كثيرة، منها الديموطيقية والقبطية، وعمل لفترة طويلة في وسط أوربا (غالبًا في مناطق الجبل الأسود والبوسنة والهرسك...) وزار معظم معالم العالم ومتاحفه، وكان يؤكد أن هناك تلالاً من البرديات المصرية (وبخاصة الديموطيقية والقبطية) في كافة متاحف العالم، وبأن معظم هذه البرديات -وخصوصًا القبطية- خضعت للإغفال والتناسي، وبخاصة البرديات التي يُحتمل أن تكشف أن التراث اليهودي كان عبئًا على التراث المصري، وكان ناقلاً للكثير منه.

وهناك مشكلة أخرى؛ وهي صعوبة الرسم وصعوبة الفهم للديموطيقية والقبطية، فمنذ الأسرة السادسة والعشرين (الدولة الحديثة) التي تبدأ بالملك بَسْماتيك، ومنذ الملك نِكاوْ رَعْ، بدأ التسلل الإغريقي والحوري (الأوربي أو الشمالي) لمصر... من خلال الجنود المرتزقة الذين استعان بهم نِكاوْ رَعْ... والأسرى والمجلوبين لصناعة السفن وغيرهم... ثم جاءت حملة الإسكندر المقدوني، ثم جاء خلفاؤه من البطالمة، ثم الرومان... وانحطت الحياة في مصر، وبدأت المتون المصرية تُكْتَب بالعامية (الديموطيقية).. ومثلما يحدث في عصور الضعف، مال الكتّاب من الكهنة إلى الصعوبة والإلغاز والإغراب، حتى لا تتسرب كهانتهم وأسرارهم وسحرهم وطبُّهم إلى الغرباء.

روى الأب أبيب أنه عاني في فهم أحد المتون (عُثر عليه في جرّة في خرابات بني حسن في أوائل الأربعينيات).. وفجأة انحلت طلاسم المتن؛ حيث إن الكاتب القديم تعمَّد أن يضع مكان الحرف الأول من كل كلمة حرف السين (أو السيجما)، ثم يأتي بكلمة زائدة بعد

الكلمة الأصلية التي بدأت بالسين، ويكون الحرف الأول من الكلمة الزائدة هو نفسه الحرف الذي حلّت محله السين...

ومثّل لنا الأب أبيب بعبارة تقول: "أنتَ لستَ كاهنًا يخدم آمون رع، أنت كاهن ناووس" (ربما كانت كاهن الناووس تعني الدّجال) كُتِبَتْ هذه العبارة بهذه الصورة:

"سَنْت (أرنب) سِسْت (لبن) ساهنا (كمون) سخدم (ينسون) سامون رع (أوز) سِنت (أرنب) ساهن (كمون) ساووس (نبق)..." هل هذه هي لغة السيم أو السين؟؟! ربما... إذ كان الأب أبيب يعتقد ذلك.

أمام مثل هذه الصعوبات، فضلاً عن الإغفال المتعمد، لم يكد يترجم عن الديموطيقية والقبطية شيء... بالرغم من أكداس البرديات التي تملأ متاحف العالم.

يقول الأستاذ سليم حسن في طبعة كتابه عن الحضارة المصرية في الخمسينيات: "مرّت مائة سنة على طبع أول بردية إغريقية (وُجِدت في مصر)، وانتظرنا حتى عام ١٩٤١ حتى تُرْجِمَت بعض البرديات الديموطيقية والقبطية، ولا تزال في المتحف البريطاني ومتحف فيلادلفيا، وغيرهما، برديات ديموطيقية وقبطية كثيرة لم تُقْرَأ... ونحن لا ننكر جهود بِيرْكِش، جِرافْت ريخ، سبيلبرج، وهربرت طومسون في محاولة الترجمة عن الديموطيقية والقبطية... ولعل أول مؤلَّف علمي يحوي متونًا مترجمة عن الديموطيقية والقبطية هو مؤلَّف العالم الإنجليزي "جلانفيل"... ولكن هذه الجهود قطرة من بحر ما تحتويه البرديات الديموطيقية والقبطية من كنوز مصرية، شاعت بين عامة المصريين والكهنة المتأخرين".

كان الأب أبيب يؤمن بإنسانية الأديان، وكان يبرهن على ذلك بأنها جميعًا أقرَّت الرِّق (لاعتبارات اقتصادية)... وبأنها ردت الكثرة في الكون إلى سبب وحيد، هو نفسه في حاجة إلى التعليل... كذلك كان يردد أن الشيعة والخوارج هم البروتستانت المسلمون (ومعهم المعتزلة).. وكان يؤكد على أن فلاسفة الإغريق يرون العالم قديمًا، أقدم من الآلهة؛ لهذا لم يحدث أي اهتمام إغريقي بالفكر العبراني... وعلى العكس اعتبر الإغريق مصر مدرسة العالم واعتبروا أنفسهم ورثة الحضارة المصرية...

كان الراهب أبيب معتزًا بالجبتانا، يقدِّمها إلى محبـِّـي التراث المصري والإنسـاني، وللذين يريدون أن يفهموا -فهمًا علميًا- حقيقة المتون الدينية؛ كذلك كان دائم الإشارة إلى تلك الموازنات التي قام بها جيمس هِنري بـرِستَد بين المتون المصرية وبـين نصـوص العهـد القديم، ليثبت الأب أبيب (كما أثبت بـرِستَد وجلانفيل من قبل) أن المتون المقدسـة السـامية استقت معظم إلهامها من المتون المصرية... حتى أن المتون السامية استخدمت نفس الكلمـة المصرية القديمة التي تعني المتن أو النص المقدس وهي "سُوْرتا" مع تطويعها للسان السامي في "سِيفِـر" و"سِفْر" و"سورة" و"سِوَارا" كما هو واضح فـي المتـون العبرانيـة والعربيـة والآرامية... وأساتذة فقه اللغة يعرفون قاعدة التبادل بين الفاء والفـي والـواو ("دَبـلْ يُـو" الإنجليزية هي "دُبْل ڤِي" الفرنسية) (لويس عوض في "مقدمة في فقه اللغة العربية").

ويشير ألْبـْرت شُوايـتـزَرْ في تقديمه للطبعة الإنجليزية من "فلسفة الحضارة" (كما يشير آخرون من ثقاة المؤرخين) إلى الدور الهام الذي لعبته مصر بفلسفتها ومتونها الدينيـة والأخلاقية في تقدُّم سلطة الضمير والأخلاق في ثقافات العالم القديم، ويشير إلـى أن: "حُـب الإنسان للسلطة والسيطرة أمر غريزي طبيعي، ولكن التقدُّم المصـري الـديني والأخلاقـي وتأثيراته العميقة في الفكر العبراني والسامي ألْجَمَ منطق القوّة، وأقام التوازن المطلوب بـين القوّة والأخلاق".

ومن الغريب ألا يلتفت أحد إلى ما ذكره المقدسي في "مروج الذهب ومعادن الجوهر" (القسم الخاص بالتاريخ القديم) من شيوع متون بين الأقباط (سكان مصر مسيحيون ومسلمون) تتحدث عن تاريخ مصر القديم وعن معابدها وآثارها وأديانها وكتبها المقدسة (٢٨٧ هـــ - ٩٠٠ م).

قضى الأب أبيب عمره كله حريصًا ومدافعًا عن الجبتانـا... باعتبارهـا خلاصـة الحضارة المصرية في بنيتها العليا... وكان دائم الشعور بأن هناك من يحاربون انتشار مـتن الجبتانا؛ حرصًا على بريق المتون العبرانية والسامية التي يؤمن بها معظم البشر... والجبتانا تحوي تفاصيل أدقَّ في التاريخ المصري القديم لم يتطـرَّق إليهـا بلوتـارخ أو غيـره مـن المؤرخين الكلاسيكيين.

ومن العبارات الكاشفة التي كان يرددها الأستاذ سلامة موسى: "إن ضعفنا الحالي يؤدي إلى ضياع كنوزنا الفكرية... فالأمم -كالأفراد -تعجز -في حالة ضعفها -عن إزالة الصدأ عن جواهرها فإن أزالته فقد تعجز عن تقديمه للآخرين الذين يصيبهم التفوق بالغطرسة والاستعلاء".

إن التنقيب في تلال البرديات الديموطيقية والقبطية في متاحف العالم يؤدي إلى الكشف عن كنوز مصرية مذهلة... ولعل الكشف عن هذه الكنوز (ومنها الجبتانا) يعيد لنا ثقتنا بأنفسنا، ويجعلنا نؤمن بأن هذه الأمة تستحق حياةً أفضل وحرية حقيقية فتستقيم الأمور.

علي الألفي

سفر "رؤيا مانيتون السمنودي"

الإصحاح الأول

أنا مانيتون السمنودي، لا أعرف عن طفولتي إلا ما سمعته من معلمي وأبي بالروح كاهن معبد مدينة منديس[1].. قصّ ذلك الكاهن الأب عليَّ قصة طفولتي فقال: "سلّمك لي -وأنت في الخامسة من عمرك- فلاح من منطقة البحيرات الشمالية في أرض النحلة، وكانت تبدو عليك ملامح الذكاء والنجابة، ولمّا سألنا ذلك الفلاح عنك، روى لنا أن الإله حورس زاره وسلّمك له، وأوصاه أن يرعاك حتى الخامسة، ثم يُسلّمك لنا في المعبد... أصبحتَ -يا مانيتون- ابنًا لي بالروح، وعلّمتك القراءة والكتابة بعدة لغات، كما علّمتك -وأنت تعرف- الكهانة والطبّ والسحر...

عرفتُ أنك ابنٌ من أبناء الآلهة.. كنتُ -أحيانًا- أصحو من نومي على أصوات وترنيمات تأتيني من حجرتك، واكتشفت أن حورس وإيزيس وأوزوريس ورع وآمون وبقية التاسوع المقدس، كانوا يزورونك، ويضعون في قلبك الأسرار المقدسة، والأسماء السحرية التي تجعلك قادرًا على تجاوز عالمنا إلى عالم الآلهة... ولمّا بدأ لسانك ينطق بالأسرار، خِفْتُ عليك، فأرسلتُكَ إلى معبد الأسوار السبعة، معبد سمنود التي هي سبيتيتوس في لغة الإغريق".

عشت -أنا مانيتون- في معبد سمنود ذي الأسوار السبعة، وتعلّمت وعلّمت، وأتقنت لغاتٍ كثيرة، وعرفتُ جميع الآلهة، وقرأت جميع الألواح المرسلة من الآلهة.. صِرْتُ كاهنًا وأنا ابن ثماني عشرة، وكاهنًا أكبر وأنا ابن ثمانٍ وعشرين.. لم أذق سمكًا في حياتي ولا لحم خنزير... كما أنني ولدت مختونًا بلا غُرْلة.. عشتُ زمن الإسكندر الكبير وفي زمن خلفائه من المقدونيين المسمَّيْن بالبطالمة... تعلّمتُ وعلّمْتُ في معبد الإسكندرية وجامعتها ومكتبتها... أتقنت كل الخطوط المصرية، كما أتقنت الإغريقية والفينيقية والعبرية والآرامية والسريانية... طوّفت على مراكز الآلهة في العالم: زرت معابد الإغريق، ومعابد العبريين، والأدوميين، ومعابد فينيقيا وببلوس وهاران... اطّلعْتُ على كتابات وألواح الكثير من الشعوب، وعلى كافة المتون التي أرسَلَتْها الآلهة.. وجمعتُ -أنا وتلاميذي- كل المتون المصرية، وكل ما كتبته الآلهة المصرية بأصابعها على الأحجار المقدسة والجدران

والتوابيت... وهأنذا أعيش أيامي الأخيرة ما بين الإسكندرية وجامعتها ومكتبتها ومعبدها، وبين سمنود ومعبدها الهادئ؛ ذي الأسوار السبعة.

كتبتُ بأمر من الملوك البطالمة تلخيصًا كاملاً لحكام مصر وآلهتها وأسراتها، منذ عَحَا المحارب والملقّب أيضًا بنَعَرْمَر... حتى وصل الإسكندر... إن تلك القوائم للآلهة والملوك المصريين العظام التي لخصْتُها، قد انتشرت من الإسكندرية [٢] وهليوبوليس وطيبا، فصارت توجد نسخ منها في هاران وببلوس وفينيقيا ومعابد الأدوميين والعبريين والفلسطينيين...

الإصحاح الثاني

زرْتُ جميع معابد الجنوب: زرْتُ معبد "طيبا"، و"طينا"، و"الفونتين"، و"ميتيت"، و"الكرنك"، و"هيراكونبوليس"، و"أبيدوس" و"بانوبوليس" وغيرها... اشتركْتُ مع كهنة طيبة في وضع القوائم الشهيرة لملوك الأرضين [٣] الذين حكموا أرض الآلهة [٤] بعد أن كانت الآلهة تحكم بنفسها أرض مصر، ثم ترك الآلهة الأرض ورحلوا إلى السماء... حيث استقل الآلهة بحكم السماء، واستقل أبناء الآلهة بحكم الأرض.

وسلسلة أبناء الآلهة تبدأ عندنا بإيزيس وأوزوريس وحورس، ثم تبدأ سلسلة أبناءُ أبناءِ الآلهة بالملك الإله عحا المحارب [٥] الذي هو نَعرمَر.. والملوك المصريون (آلهة - وأبناء آلهة - وأبناء أبناء آلهة) ثلاثمائة وأربعون ملكًا، سيطروا على ثلاثمائة وواحد وأربعين جيلاً من الناس، وبما أن كل ثلاثة أجيال تكوّن قرنًا من الزمان؛ إذن فالتاريخ المصري كله (آلهة - وأبناء آلهة - وأبناء أبناء آلهة) يبلغ أحد عشر ألف عام وثلاثمائة وأربعين عامًا [*]... وأول ملك (من أبناء أبناء الآلهة) وهو عحا المحارب أو نَعرمَرْ يعود تاريخه إلى سنة أربعة آلاف قبل الإسكندر [٦]، وقبل ذلك كان حكم أبناء الآلهة، وحكم الآلهة.

هذا المختصر لحكام مصر، وُضِعَتْ منه نسخ في جامعة الإسكندرية وفي معبدها وفي الأروقة الملحقة بعمود بومبي [٧]؛ حيث يتم التكريس للإله سيرابيس المصري الإغريقي الذي يُعبَدُ وتُقدَّم له القرابين والطقوس الآن في كاتاكوم [٨]...

هذا المختصر معروف بلسان الإغريق باسم إجيبتياكا [٩] وقد ضمّنْتُه رسالة بأنواع الأخشاب، والعطور المقدَّسة، والبخور، واللبان والمرّ التي تُقدَّم للمعابد في مصر، ورسالة أخرى عن الأحجار والمعادن والأسلحة والمكتشفات..

الإصحاح الثالث

قضيتُ -أنا مانيتون السمنودي- عيد الإله أوزيريس في العام الأول من حكم ثاني البطالمة ضيفًا على معبد سيرابيس القريب من عمود بومبي... وبعد قُدّاس المساء، وصلاة أول الليل، دعاني المقربون من أتباع الملك، والمبجلون من كهنة المعبد إلى وليمة القرابين المقدسة، وشربنا -مع الوليمة- أباريق من نبيذ البلح والعنب، مقدّمة إلى المعبد سكائب قربان [١٠] وما إن وضعتُ رأسي على الوسادة، في حجرة نوم كبير الكهنة -والتي تركها لي حيث سافر إلى عين شمس- حتى انتبهت من نومي مذعورًا... أيقظني الإله حورس في هيئة الصقر، مستخدمًا أجنحته المصوغة من الذهب والياقوت والزُّمُرّد، وكانت ترافقه الأم الإلهة إيزيس التي كانت تلبس رداءً أرجوانيًا أبهى من زنابق الحقول ومن زهور اللوتس، وابتسمتْ لي الربة الإلهة وربّتتْ على كتفي، كذلك ابتسم لي الإله أوزير وطمأنني بأنه لم يأتِ ليأخذني معه إلى الغرب.. وقدّم لي "جَبّار" أحد معاوني "رع" رب الأرباب؛ الذي يسميه الكنعانيون والأدوميون "لا"، والذي تسميه القبائل العبرانية والسامية "الوهيم"..

اختفى الثالوث المقدس، وحملني "جبار" على ظهره الذي يشبه ظهر الحصان، وطار بي، مستخدمًا أجنحته الذهبية صاعدًا إلى السماء.. وتوقف جبار عند الجميزتين السماويتين المقدستين، اللتين تقفان شامختين عند مدخل طريق النور المؤدي إلى العرش السماوي، وخلع "جبار" أجنحته الذهبية وركّبها في كَتِفَيّ، وأشار لي أن أواصل الطريق إلى عرش رب الأرباب، وفهمتُ منه أنه لا يستطيع تجاوز الجميزتين المقدستين وإلا احترق...

وجدتني أطير بأجنحة جبار، دون إرادة مني، واقتربتُ من قدس الأقداس، فُفُتِحَتْ الأبواب النحاسية السبعة بابًا بعد باب، ثم فُتِحَتْ الأبواب الذهبية، وأخيرًا فُتِحَ الباب الزمردي الذي يقع خلفه سر الأسرار؛ فإذا عرش عظيم مصوغ من النور والياقوت والعقيق، وتفيض عنه، بين لحظة وأخرى أضواءٌ وألوان تشبه قوس المطر، فيضاء قدس الأقداس وعرش الجالس على الكروبيم... وكلما أشرقت الأنوار، وكلما فاض عن كل بِنْبِنْ BenBen أضواؤه وأنواره، يظهر الجالس على عرش الكون وكأنه الذهب ممزوجًا بالياقوت واليشب والزبرجد... ساعتئذٍ لم تجد عيناي

القدرة على النظر إلى الجالس على العرش: ووجدتني ساجدًا أمام عرش سيد الأكوان.

حول العرش العظيم، رأيت تاسوع الأرباب والملائكة متسربلين بثياب بيض يجلسون على عروش صغيرة تكوّن دائرة حول العرش العظيم، ويردّد تاسوع الأرباب والملائكة رافعين أياديهم إلى رب الأرباب: المجد لرع رب الأرباب، والذي كان أتوم أول الخلق والآلهة، والذي صار آتون وآمون، والذي تحوّل إلى توت، والأب بالروح لأوزيريس وحورس وإيزيس... المجد لرع الذي سمح لنا بأن نكون معه في الأعالي... والذي بالكلمة -التي هي ذاته- خلق نفسه بنفسه، وخلق كل الأشياء والموجودات والدبّابات.

أمام عرش رع وعروش الأرباب والملائكة الذين يكوّنون التاسوع، رأيت سبع شموس "تتلألأ أنوارها تنطق وتسبح بعظمة رع... في كل زاوية من الزوايا الأربع المحيطة بقدس الأقداس يقف حيوان ضخم في حجم جبل مهول: فبدت هذه الحيوانات محيطة بالمكان، حتى أن عينيّ عجزتا عن الإحاطة التامة بأجرام تلك الحيوانات... لكن بدا لي الحيوان الأول كأنه أسد عملاق... في وجهه عيون كثيرة تبرق وتلمع، والحيوان الثاني في شكل قريب من فرس النهر، والحيوان الثالث هو أبو الهول بجسمه الحيواني ووجهه الإنساني وتلمع في وجهه أعداد من العيون لا تحصى والحيوان الرابع هو نسر الكروبيم المجنّح.

في وجوه تلك الحيوانات عيون كثيرة تبرق وتلمع، ومن أفواه تلك الحيوانات تتردّد تمجيدات وترنيمات لرع قائلة: "قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ... قُدُّوسٌ هُو الرب الإله الأزلي القادر على كل شيء... قُدُّوسٌ هو الرب الإله ذو الصيرورة الدائمة منذ الأزل وإلى الأبد.. قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ هو الرب الإله الذي خلق نفسه بنفسه، منذ أن كان هو أتوم الذي خرج من البيضة الطافية على سطح المياه الأزلية "نون"، ومنه كان "تشو" و"تفنوت" اللذان أنجبا "نوت" سيدة السماء، و"جب" "جسد الأرض" ويسجد الأرباب وملائكة التاسوع ويطرحون أكاليلهم ويقولون لرع: "لك المجد في الأعالي لأنك تستحق المجد، فأنت القدرة التي تقف خلف كل ما كان: وما هو كائن وما سوف يكون".

الإصحاح الرابع

فجأة صَدَرَ صوتٌ عميق عن صاحب العرش الأعظم... وكأنّ السموات والأرضين تردّد ذلك الصوت القدسي وسمعتُ -وسمع معي كل من في الأرض والسماء -صوت قُدّوسِ الكون يهتف بي: "أي مانيتون... أيها الكاهن العارف بالأسرار... أيها الكاتب الذي يكتب بكل لسان... شاءت إرادتي أن يكون هناك في الأرض نهر عظيم، هو حابي أو النيل... وحول ذلك النهر ينمو شعب عظيم، هم الجبتيون أبناء جبتو مِصْرايِم... والجبتيون هم أقرب الشعوب إليّ [11]، كما أنهم أقرب إلى الدماء الإلهية؛ ولهذا طرحوا عنهم حياة الغاب والحيوان وصاروا يقودون جنس البشر في مضمار الحضارة... إن أرض مصر هي أرض الآلهة، فقد عشنا -نحن التاسوع المقدس- على أرض مصر؛ حين كانت جنّة التاسوع جنّةً أرضيّة...

أي مانيتون: إن آثار الآلهة قد اندثرت... كذلك فإن الكثير من آثار وكتابات الأقدمين قد عفّى عليها الزمان.. لقد فُتِحت القبور ونُهِبت وطُمِست مسلات كثيرة، ومعابد عظيمة دُمِّرتْ وسُوِّيتْ بالأرض ومُحِيت الكتب والبرديات... بل إن كثيرين من الهمج الذين احتلوا مصر قد سرقوا الأهرامات والقبور، ونهبوا كنوزها، وأكلوا مياواتها، بزعم أن أكل الجثث المحنطة يطيل العمر أو لعلّه يَهَبُ الخلود... وبعض مَنْ احتلوا مصر أذابوا البرديات وشربوها كأدوية شافية من الأمراض والسحر... لهذا اخترتك يا مانيتون وأكلّفك أن تكتب الجبتانا... إنك -يا مانيتون- مُكَلَّفٌ من قِبَلِي أن تكتب الجبتانا؛ بحيث تدوّن فيها كل أسفار التكوين المصرية.

الإصحاح الخامس

عُدْتُ -أنا مانيتون- من الرؤيا... ولكن ظلّت تلك الرؤيا بقلبي... وتأكد اعتقادي بأن ما يقوله الإغريق عنا -نحن المصريين- حقّ... فنحن عند الإغريق مدرسة العالم ومعبده ومنشأ القيم والضمير[١٢]... صحوت من نومي... وعجبت إذ رأيت بجواري على الفراش مجموعةً من الرّيشات المشذّبة المُعدّة للكتابة، ووعائين: أحدهما للمداد الأسود والآخر للمداد الأحمر، وعدة إضمامات من البردي... وتذكّرت أن "رع" في آخر "الرؤيا" كلّف أحد معاونيه من التاسوع بأن يعطيني الأدوات الكافية لكتابة "الجبتانا"[١٣].

رجعْتُ -أنا مانيتون- إلى معبدي الهادئ، ذي الأسوار السبعة، معبد "سبينيتوس" في لغة الإغريق، والتي هي "سمنود" في لغتنا المصرية، ونَظّمْتُ ورتّبْتُ ما تجمع لديّ من قطع الأُسْتِراكا[١٤] ومن برديات نُسِخَتْ فيها أورادٌ كثيرة من متون الأهرام ومتون التوابيت، ومن برديات سجّل فيها تلاميذي نماذج مختلفة من كتاب الموتى (كتاب المتجهين للغرب) وبرديات تحكي حكمًا موروثة وبعض سجلات المعابد القديمة، ومتون العقائد الموروثة، وأسفار الآلهة، والألواح القديمة المسجّل عليها شرائع شعوب غابرة.

بدأت كتابة "الجبتانا" ملتزمًا بتوجيهات رع، ومسجلاً أسفار "التكوين المصرية" باللغة المصرية، بخطوطها الثلاثة الشائعة بعد الإسكندر: الخط الهيراطيقي، والديموطيقي، والجبتي مع عدّة نسخ بالإغريقية.

كتبت أسفار التكوين المصرية "الجبتانا" وكلّفْت تلاميذي في معبد سمنود كتابةُ عدّة نسخ، بعضها سنرسله إلى هليوبوليس، وإلى معبد الإله سيرابيس في الإسكندرية، وإلى معبد مدينة اللّه الأولى في طيبة، وإلى معابد "ببلوس" و"فينيقيا" و"مجدو" و"بائيروت" و"أورشاليم" و"هاران"...

أنا -مانيتون- أقرّ بأن "الجبتانا" هي التاريخ الحقيقي للسلالة المصرية آلهةً وأبناءَ آلهةٍ وملوكًا... ابتداءً من بدء التكوين وظهور "أتُم" أول الآلهة... وانتهاء بالملك عحا المحارب نَعَرْمَر، ومرورًا بالتوحيد الأول للأرضين على يد

أوزيريس الناسوتي، الذي تحوّل بعد أن فداه حورس بعينه إلى أوزيريس اللاهوتي باعث الخضرة في مصر والمشرف على طريق الراحلين إلى الغرب.

انتهيت اليوم، الحادي عشر من توت، من السنة الثالثة من حكم ثاني خلفاء الإسكندر من كتابة "الجبتانا" أسفار التكوين المصرية... في ثلاث عشرة إضمامة من بردي أرض النحلة، وثلاثين إضمامة من بردي تانيس.

هوامش سِفْر "رؤيا مانيتون السمنودي"

"هامش عام"

- بِن بِن (Ben Ben) كلمة مصرية قديمة تشير إلى قمم الأهرامات والمسلات (لعلّها كانت تصاغ من الذهب) حيث كانت تنعكس عليها أشعة رع.. والبن بن جذر الشكل الهرمي، ولعل "البن بن" أساس توتمي مقدّس لدى المصريين في العصر الباليوليتي (الحجري القديم).
- نصوص التلمود والعهدين القديم والجديد تعيد بداية العالم إلى نفس التاريخ المصري؟؟!!
- التاسوع المصري والتسعة عشر المصرية (أيضًا) انتشرت في الفكر السامي كله.
- التصويرات الإسلامية للبراق الذي حمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء مأخوذة عن الشرّاح للعهدين القديم والجديد، وبخاصة شرّاح سِفر "رؤيا يوحنا اللاهوتي" ويكثر لدى الشرّاح المسلمين اعتبار هذه التصويرات من "الإسرائيليات"... وسِفْر "رؤيا مانيتون السمنودي" يكاد يكون الأصل الميثولوجي لكل هذه التصويرات، وكذلك يوجد صدى للجميزتين السماويتين (في الجبتانا) في "رؤيا يوحنا" وفي حديث القرآن الكريم عن "سدرة المنتهى"، والسدرة شجرة النبق وهي شجرة صحراوية، والجميزة شجرة مصرية عريقة؛ احتفظت اللغة العربية باسمها المصري، الذي لا يزال عالقًا ببعض أسماء القرى مثل: الجميزة. جميزة بلجاي.

١- منديس: من مدن شرق الدلتا في العصور القديمة... لعلها بهبيت الحجارة... عاش فيها مانيتون لفترة من الوقت.

٢- مانيتون السمنودي (نسبة إلى سمنود سبينيتوس) أخذ عنه المؤرخون الذين جاءوا بعد مثل: يوسيفوس، وهيرودوتس، وأفريكانوس وبلوتارخ... ويتردّد اسمه في الوثائق المصرية، كان يعيش زمن الإسكندر والبطالمة، ولِدَ حوالي ٢٧٠ ق.م.

٣- الأرضان: أرض الشمال وأرض الجنوب... والأرضان ترد كتسمية لأرض مصر.

٤- أرض الآلهة: مصر هي أرض الآلهة في أدبيات المصريين وغير المصريين -راجع: سليم حسن: مصر القديمة- عدة أجزاء، فوستي دي كولنج "مصر في العصر العتيق"، جيمس هنري برستد "فجر الضمير"، جون ولسون "الحضارة المصرية".

٥- عحا المحارب: لعله هو نفسه مينا العقرب أول ملوك الأسرة الثينيـــّة الأولى.

٦- راجع: سليم حسن، جيمس هنري، جون ولسون... وكذلك نجيب ميخائيــل: "مصـر والشرق الأدنى في العصور القديمة" عدة أجزاء ــ دار المعارف.

٧- عمود بومبي، هو عمود السواري، أحد معالم الإسكندرية الهيلينستية.. حيث كان معبد الإله سيرابيس الذي يجمع بين صفات آلهة مصر وآلهة اليونان. راجع سليم حسن.

٨- كاتاكوم: حُرِّفت في العامية العربية إلى كوم الشقافة... وهي بقايا معبد قديم.

٩- AEGYPTIACA راجع معاجم الحضارة المصرية، وكذلك جون ولسون بترجمـ أحمد فخري.

١٠- القرابين والولائم المقدسة، واشتراك الكهنة في الأكل من القرابين سمة بارزة في كـل الأديان القديمة... وكذلك السكائب: جمع "سكيبة"؛ وهي كمية من الخمــر تــُسكـ كتضحية على مائدة أو مذبح القربان.

١١- تحاول كل أمة أن تنسب لنفسها خصوصية شعب الله المختار... والمصريون أول من فعل ذلك.

١٢- فجر الضمير = يُصِرُّ جيمس هنري برِستد على أن مصر هي صانعة فجــر ضـمير البشر، بل يومئ جيمس هنري إلى أن الأديان كلها -خصوصًا أديان السامية- تأثرت بمصر.

١٣- الملائكة كمعاونين لله، فكرة مصرية قديمة، وهي تثبت المقولة الأنثروبولوجيــة: "إ إله كل أمة صورة من حاكمها"، وبما أن للملك معاونين، فكذلك الملائكة مع الله.

١٤- الأستراكا ــ قطع من الفخار تــُسجــَّل عليها بعض الكتابات.

(*) تاريخ مصر هو تاريخ العالم عند مانيتون، والذي يعود إلى أحد عشر ألف عام وثلاثمائـ وأربعين عامًا، والغريب أن شــُرَّاح التلمود والكتاب المقدس يذكرون رقمًا مقاربًا (وكـذلـ شــُرَّاح المشنا).

سِفْر "انبثاق الآلهة والعالم"

الإصحاح الأول

في البدء لم يكن إلا ماءٌ وضباب... ولم تكن حياة... ولم تكن نباتات ولا ذبابات... طبقتان متلاصقتان من المياه، بينهما فاصل فضي من النور... الجزء الأسفل من المياه هو "نون" المحيط الأزلي.. مياهٌ وضبابٌ وظلمة؛ فالشمس لم تكن قد تكوّنت بعد.

على سطح المحيط الأزلي "نون"، طفت بيضة ذهبية، في حجم ألف بيضة من بيض النعام، ثم حدث انفجارٌ هزّ الكون كله... وانفجرت معه تلك البيضة التي طفت على سطح "نون"... وخرج "أتوم" أول الآلهة، من تلك البيضة، ودفع الطبقة العليا فارتفعت، وانفتقت عن الطبقة السفلى التي هي البحار...

كانت الظلمة لا تزال مسيطرة، فعطس أتوم قائلاً: "تشو"؛ فظهر الربُّ "تشو" (*) رب الفضاء، وتفل (بصق) أتوم؛ فكانت "تفنوت" ربة الندى... إذن كان أتوم هو الكلمة.. وكان أتوم هو الخالق، بإرادته خلق نفسه بنفسه... وبالكلمة "تشو" خلق "تشو" رب الفضاء، وبالكلمة "تِف نوت" خلق "تفنوت" ربة الندى.

ظلّ "أتوم" في الظلمة يراقب "تشو" و"تفنوت"، ثم بدا لأتوم القادر على الخلق بالكلمة أن يزوّج "تفنوت" "لتشو"... فقال: ليكن زواج بين الاثنين؛ فتزوجا، وحملت تفنوت ألف عام؛ ثم أنجبت ابنتها "نوت" سيدةُ السماء، وابنها "جب" الذي هو جسد الأرض.

وأعجب "أتوم" بقدرته على التزويج، وجعل المتزوجين يتّنسلُون... وأمر "أتوم" "نوت" سيدة السماء أن ترفع السماء بعيدًا عن سطح نون... ولمّا رأى أتوم زرقة السماء وقتامَتها، حيث لم يكن ليل ولا نهار... قال لنوت: "عليك -أيتها الربّة -أن تزيّني السماء؛ فتجعلي فيها مصابيح بالليل ونورًا في النهار"؛ فاستجابت نوت لكلمات أتوم، فكان صباح، وكان مساء (**)... ولكي يكون صباح صَنَعَتْ نوت قرصًا كبيرًا من ذهب؛ لينير النهار، وقرصًا أصغر من الفضة تعاونه مصابيح صغيرة؛ لإنارة الليل... وفجأة تحرّك قرص النهار الذهبي وصارت له الكلمة فقال: "أنا رع رب الأرباب.. صارت لي الكلمة، ولم تعد الكلمة لأتوم..." وفي الليل اهتزّ

القرص الفضي. ونطق بالكلمة قائلاً: "لم أعد مجرّد مصباح بل أنا "خنصو" إله القمر الشجاع المقامر".

صارت الكلمة إذن لرع... وتوارى أتوم... وظهرت قدرة رع الخالقة: كان جب جسد الأرض، متواريًا أسفل محيط المياه نون؛ فأمر رع جب أن يظهر للوجود... فتلوّى جب بحركاتٍ اهتزّ لها الكون، وكانت انفجارات ونيران وزلازل، وساعده رع حيث اقترب من جب وأمده بنار... فارتفعت أجزاء على سطح جب؛ فكانت القارات، وانخفضت أجزاء؛ فكانت البحار والمحيطات.

ولمّا تأمّل رع كلّ ذلك، وجده حسنًا: أرضٌ تحوي جبالاً ومرتفعات وبحارًا ووديانًا، وسماءٌ تزيّنها شمس بالنهار، وقمرٌ ونجوم بالليل... وفكّر رع قائلاً: "وماذا بعد؟! إنني محتاج "للحكمة". ولمّا كانت كلمات رع كلماتٍ خالقة وُجد "تحوت" إله الحكمة.

الإصحاح الثاني

قال رع لتحوت إله الحكمة: "إن منظر السماء صار جميلاً بالنهار وبالليل، وإن البحر جميل" بحركته واضطراب أمواجه... لكن منظر الأرض الجدباء لا يَسُرُّني، أين حكمتك يا تحوت؟!" فقال تحوت: "أي رع ربّ الأرباب، بما أنك فوّضتني بالكلمة... وبما أن الأرباب تَخْلُقُ بالكلمة... فلتكن "حتحور" ربّة للأنوثة، وليكن أبيس ربًا للذكورة.. وليكن ذكر وأنثى في كل شيء... نباتات تنبت من جسد الأرض، ذكر وأنثى، وأسماك في البحر، ذكر وأنثى، ودبابات على الأرض، ذكر وأنثى، وطيور في السماء، ذكر وأنثى.

وظل رع والآلهة يستمتعون بجنات الأرض، ويتأملون مياهَها ووديانَها وأنهارَها ونباتَها وحيوانَها... كل شيء أرضي يموت ويتجدَّد بالميلاد: النبات والأسماك والطير والحيوان... وكل شيء إلهي لا يموت، كل شيء إلهي خالد؛ ولهذا لا يتجدد الآلهة بالميلاد، بل يوجدون بالانبثاق، فالآلهة: كل واحدٍ منهم أول؛ إذ لم يكن قبله شيء، ولن يكون بعد الآلهة شيء.

عاش رع وتاسوع الآلهة في الأرضين، أرض جبتانا، وذات مرة رأى رع أسدًا ولبؤة يتناسلان، ثم تلد اللبؤة أشبالاً صغيرة... فقرَّر رع أن يجعل الآلهة ذكورًا وإناثًا يتزاوجون... وعرض رع إرادته على تاسوع الآلهة... ولكن التاسوع السماوي رفض إرادة رع؛ خوفًا من تحوّل الآلهة إلى كائنات تلد وتموت...

استاء رع من رفض إرادته... وقال في نفسه: "كيف أكونُ ربّ الأرباب وتُرفَضُ إرادتي؟!"... وفكر رع في خلق ربة جميلة على صورة أنثى، وأطلق رع كلمة الخلق، فظهرت "قمّة الغرب"، عروسًا سماوية جميلة تعشقها عيون الآلهة وقلوبهم.

كان رع قد سلب معظم القدرة الإلهية من "أتوم" أول من انبثق من الآلهة... وبالرغم من هذا، كان أتوم لا يزال يحتفظ ببعض إرادته الإلهية وببعض كلمات الخلق... وعشق أتوم "قمة الغرب"، وأراد أتوم الذي لا يرتاح لرع، أن ينسل عددًا من الآلهة ينصرونه على رع... لهذا تقدم أتوم، يعرض حبه المقدس على "قمة الغرب"... وطلبت منه "قمة الغرب" أن يعطيها بائنة أو مهرًا... فأمر أتوم

جب إله الأرض؛ فأطلق جب من جوفه كل زهور الأرضين: من نرجس ولوتس وور

وآس ورياحين... فلما تنسّمت "قمة الغرب" رائحة الزهور: انتعشت ورضيت أن يضاجعها أتوم.. وحملت قمة الغرب فأنجبت التوأم "خِنم" و"بتاح"... ثم راود أتوم قمة الغرب مرة ثانية؛ فطلبت منه بائنة أو مهرًا... فأمر جب، فأطلق جب من جوفه كل فواكه الأرضين من رمان وعنب وبلح وجميز وتفاح... فلمّا أكلت قمة الغرب من فواكه الأرض، انتعشت ورضيت أن يضاجعها أتوم... وحملت قمة الغرب، وأنجبت التوأم آمون وآتون...

•

احتدم الصراع بين الآلهة، رع ومعه مجموعة من الآلهة... وأتوم ومعه آلهة أخرى، بالإضافة إلى زوجته قمة الغرب وأبنائه الأربعة: "خنم وبتاح وآمون وآتون... وحارب الآلهة بعضهم بعضًا... واستثاروا البراكين والزلازل والنيران... وبما أن الآلهة قادرة على الخلق بالكلمة، استغل الآلهة هذه القدرة: فمنهم من خلق الشياطين لتحارب معه، ومنهم من خلق الجن، ومنهم من خلق المسوخ والتنانين والمردة.

وأراد أتوم أن يقوّي معسكره بعدد آخر من آلهة الميلاد، لا الانبثاق: فراود "قمة الغرب". فطلبت منه بائنة أو مهرًا. فقال لها: "بقي معي من إرادتي الإلهية ومن الكلمات الخالقة، ما سوف يمكنني من خلق السحاب والمطر... وهكذا تزدهر الأرض دون ما حاجة إلى جب... وكان سحاب وكان مطر.. وانتعشت "قمة الغرب" ورضيت أن يضاجعها أتوم، وحملت "قمة الغرب" ولكنها هذه المرة شعرت بضعف في إرادتها، كذلك شعرت بنقصٍ في إرادة أتوم... وأنجبت "قمة الغرب" توأمًا عجيبًا هما جبتو وجبتانا... وكانا متلاصقين: ظهراهما متلاصقين، ولكل منهما رأسه ورجلاه وذراعاه، ولكل منهما أعضاؤه التناسلية، جبتو ذكر، وجبتانا أنثى، ولكنهما جسد واحد متلاصق، لا يستطيع أحدهما أن ينظر عورة الآخر.

الإصحاح الثالث

زادت ضراوة الصراع بين الآلهة، يتزعم "رع" مجموعة منهم، ويتزعم "أتوم" مجموعة أخرى... واشترك الشياطين والجن والعفاريت والمسوخ والتنانين في هذا الصراع، كل يتبع أحد المعسكرين المتقاتلين... وبدأت حيل الآلهة والشياطين تُستَخدم في الصراع... وبُتِرَت أعضاء بعض الآلهة والشياطين أثناء الصراع... ولكن أعضاء الآلهة والشياطين إذا بُتِرَت ينمو مكانها عضو جديد أكثر قوة؛ الأمر الذي يؤدي إلى تفاقم الصراع.

الآلهة لا يأكلون...

لكنَّ الآلهة يشربون، والخمر شراب الآلهة، تصنعه وتقدمه لهم الجنيات والحوريات... والآلهة لا يسكرون... ولكنهم، لأنهم آلهة، يعلمون قدرة الخمر على الإسكار... وكان "خِنم"، إذا أراد اللهو، حوّل غدران الأرضين، فصارت مياهها خمورًا؛ فترقص الأسماك في الخمر، وتترنّح الأسود واللبؤات والأشبال، وتترنّح كافة فصائل الحيوان.

عشق "خِنم" "جبتانا"، أنثى التوأم جبتو، الملتصقة به ظهرًا لظهر، كلّف "خنم" حوريات الخمر، أن يقدمن كمية كبيرة من الخمر الإلهية لجبتو؛ فضربت الخمر رأس جبتو فنام... تقدَّم خِنم فغازل جبتانا... وضاجع جبتانا... حملت جبتانا من خنم، وولدت توأمًا مزدوجًا متلاصقًا ظهرًا لظهر... كثرت التوائم المتلاصقة... توالدت التوائم المتلاصقة، بالرغم من صعوبة التناسل بين الذكور والإناث المتلاصقة... وكانت هذه التوائم لا تموت، حيث إن ازدواجها قوّى الجانب الإلهي فيها... وانضمت هذه التوائم المتزايدة يومًا بعد يوم إلى أتوم؛ فزادت قوة أتوم في صراعه المقدس مع رع... فكر رع: "ماذا أفعل في هذه الكائنات المزدوجة بالالتصاق، والتي تناصر أتوم؟ إن ما يقربها من الآلهة والخلود أنها ملتصقة... لو فصلتها ذكورًا وإناثًا؛ فسوف تفقد قدرتها الإلهية وتتحوّل إلى حيوان بشري يلد ويموت، فلا يتزايد بهذه الصورة الكبيرة التي تساعد أتوم.."

شاءت إرادة "رع" أن يُشَق نهر عظيم في الأرضين، وأمر رع ذلك النهر أن يتحول ماؤه إلى خمر... وشربت التوائم المتلاصقة من خمر النهر فسكرت، فأمر

رع ملائكته ومعاونيه من الأرباب والآلهة، أن يأخذ كل واحد منهم شعرة من رأس رع، وأن تستخدم الشعرة المقدسة لفصل تلك التوائم المتلاصقة... فـُصِلت جبتانا عن جبتو... وكذلك فـُصِلت الذكور عن الإناث من كل تلك التوائم... ونش شعب عظيم هم الجبتوس أو النـّيلوس؛ ومن النيلوس كانت تسمية ذلك النه المقدس بالنيل...

وما أنْ فـُصِلت تلك التوائم حتى ضَعـُفـَتْ إلاهيتها، وظهرت حيوانيتها فعرفت الموت والزواج والميلاد... وانتصرت إرادة رع... ولكن الجن والشياطين والأبالسة بدأت تكوّن جبهة ثالثة... سيطرت هذه الجبهة الشيطانية على الجبتوس أ النـّيلوس... واتحدت جبهتا الآلهة، وصارتا جبهة واحدة ضد الشياطين والأبالسة والمردة... وبدأ الحيوان البشري يناصر الآلهة أحيانًا... ويناصر الأبالسة والشياطين والمردة أحيانًا أخرى... وبدأ القتل... ورأى رع سائل الحياة، السائل الأحمر الذي مدّ ب البشر لكي يعيشوا... رأى رع ذلك السائل يُسفك ويروي ثرى الأرض... عندئذٍ قال رع: "لم تعد جنة الأرض تصلح للآلهة... علينا -معشر الآلهة- أن نترك جن الأرض لنعيش في جنة السماء".

هجر الآلهة الأرضين إلى السماء، واهتم الآلهة بجنة السماء وبالنيل "الذي في السماء"... وابتدأ النيل "الذي في الأرض" يفيض مرة واحدة في العام، بع أن كان يفيض في كل شهر... وقل ماؤه الذي كان يفيض فيصل إلى جميع أرض الجبتوس، وانحصر ماؤه في مجرى النيل الأصلي... وبدأت جنة الآلهة الأولى، وهـ جبتانا، أرض الجبتوس، تصبح أرضًا تقل فيها المياه... وبالتدريج... تحوّل الجبتوس فصاروا حيوانات بشرية متصارعة...

الإصحاح الرابع

هجر الآلهة الأرضين، أرض جبتانا، إلى جنة الآلهة في السماء... وحكم رع على الشياطين والأبالسة والجن، بأن تتحول إلى كائنات لا يراها الحيوان البشري... وتستطيع هذه الكائنات أن تهمس للبشر؛ فتقترب في أفعالها من الشياطين... وربما تستطيع هذه الكائنات البشرية أن تتجه إلى الخير فتقترب في أفعالها من الآلهة.

في أدغال ومستنقعات النيل، عاشت حيوانات وزواحف الأدغال، كما عاشت المسوخ، والتنانين، والمردة، والأوتان ومسوخ أبي الهول: ذات الوجوه البشرية والأجساد الحيوانية.

أما الحيوانات البشرية، التي تفرّعت عن سلالة الآلهة، وهم الجبتيون، فقد عاشوا إلى الغرب، وإلى الشرق، بعيدًا عن أهوال أدغال النيل، وكانت معظم أنسال الآلهة من الحيوانات البشرية تقطن الغرب...

بعد أن هجر الآلهة الأرضَ إلى السماء، كانت جنة الأرض لا تزال يانعة... لكن رويدًا رويدًا... وجيلاً بعد جيل، بدأت المياه تقل في الشرق والغرب... وبدأت الحيوانات البشرية تتصارع فيما بينها على ثمار الأرض ومناطق الصيد والنفوذ[1] وتحوّلت العائلات البشرية إلى قبائل متصارعة يأكل بعضها بعضًا.

وأصبحت جنات النيل المعروشة مطمحًا لأسر الحيوان الإنساني، إلا أن الإشارات والشائعات المبهمة، بين أسر الحيوان البشري، عن أدغال النيل، وما تحويه من مردة وتنانين ومسوخ وتماسيح وأسود ونمور وفيلة متوحشة، وزحافات طائرة، وطيور جارحة قادرة على اختطاف الرجال والحيوانات... كل هذه الإشارات والشائعات، جعلت الأسر البشرية المتصارعة من أجل البقاء، تُحجِم -أول الأمر- عن الاتجاه إلى أدغال النيل سعيًا إلى الرزق... فلا جدوى من وفرة الرزق، إن كانت تعرّض حياة الكائن للخطر... ناهيك عن أنها تعرِّض الجنس كله للانقراض.

الإصحاح الخامس

سألني "خِمِنْتُو" أحد تلاميذي النساخين في معبد سمنود، -وهو أيضًا أحد شباب شمامسة الرهبان- قائلاً: أيها المبجّل مانيتون... ما اللغة التي يتحدّث بها الآلهة؟ وما اللغة التي يتحدث بها النّيلوس أي الجبتيون، الذين هم من نسل الآلهة؟!" ولّما طرح "خِمِنْتُو" سؤاله، وجدت أن جميع الحضور من الشمامسة والكهنة، صغارًا وكبارًا، متشوّقون لسماع إجابتي فقلت (وسجّل التلاميذ عنّي): "إذا وُجِد القلب المفكّر [٢] فلا بدّ من لسان ينقل فكر القلب للآخرين... كان، ولا يزال، للآلهة جميعًا لغة واحدة يتحاورون بها في مجمعهم... وبدهي أن الربّة المقدسة "قمة الغرب" عشيقة الإله الأول "أتوم" كانت تتقن لسان الآلهة... وإلا... فكيف كان يغازلها أتوم؟! وكيف كان يحاورها؟! وكذلك الربة جبتانا أنثى التوأم جبتو، التي عشقها الرب "خِنم"... ما كان لها أن تحاوره إلا باللغة، وما كان له أن يغازلها ويراودها عن نفسها إلا باللغة... وهكذا كانت التوائم المزدوجة تتكلم لغة الآلهة؛ لأنها هي نفسها من نسل الآلهة.... ولمّا احتال رع وفصل التوائم، وفقدت إلاهيتها، لم تفقد لغتها... وتناسل النّيلوس الجبتيون، الذين هم من نسل التوائم المزدوجة... والتي هي من نسل الآلهة... وظل لسان النّيلوس الجبتيون هو نفسه لسان الآلهة... وليشكر الجبتيون الآلهة مرتين: الأولى: لأنهم قادرون بلغتهم الإلهية على الحوار أمام محكمة أوزوريس في الآخرة... والثانية: لأن لغتهم الجبتية - لغة الآلهة -تمكّنهم من معرفة أسرار الآلهة، كما تمكّنهم من الطب والسحر القائم على لغة الآلهة... وَلْيَعْلَم الجميع، خصوصًا الرهبان والإكليروس، أنه لولا معرفتنا بلغة الآلهة، لما كانت لنا صلة بالسماء، وما كان للشعب أن يستعين بنا في الطب والسحر والطقوس... يكفينا فخرًا -نحن المصريين- أننا نتكلّم لغة السماء، وأن لساننا، هو نفسه لسان الآلهة" [٣].

هوامش سِفْـــر "انبثاق الآلهة والعالم"

١- كان المصريون يعتقدون أن العالم هو مصر، بل لا يزال بعض عوام المصريين في القرن العشرين، يستخدمون عبارات مثل: "الدنيا التي رواها النيل".. ويرى دارسو الأنثروبولوجيا والجغرافيا السياسية أن التصحـُّـر في الصحراوات المصرية، هو الذي دفع بالمصريين، الذين كانوا يسكنون كهوف الفيافي الشرقية والغربية، إلى الاتجاه لأدغال النيل... ونما المصريون في منعزل وادي النيل، وكوَّنوا حضارتهم الخاصة... واندفع المصريون في تكوين حضارتهم، خارجين بسرعة مدهشة من العصور الحجرية قبل التاريخ، إلى العصور التاريخية الأولى التي شهدت مولد أول الحضارات البشرية.

٢- القلب المفكـِّـر: من الأخطاء الشهيرة عند الأقدمين تصوُّرهم أن القلب هو مركز التفكير... ومن عجب أن هذا الأمر تبنَّـاه أرسطو، ورفض غيره؛ حيث كان يتصور أن "المخ" ليس إلا جهازًا لضبط حرارة الجسم.

٣- كان المصريون يعتقدون أن مصر هي مهد الآلهة، بل إن متون الشعوب المجاورة لمصر، تتحدث عن مصر دائمًا باعتبارها "أرض الآلهة" وترتَّـب على ذلك، أن المصريين آمنوا بأن لغتهم المصرية (الجبتية) هي لغة الآلهة... (ونفس الاعتقاد كان عند كافة الشعوب؛ فالهنود القدماء اعتقدوا أن الآلهة لسانها سنسكريت، والعبريون اعتقدوا أن أدوناي أو إلوهيم لا يعرف إلا اللسان السامي العبري... وهكذا...).

(*) يبقى في كل اللغات أثر النحت القديم من الأصوات الطبيعية، والذي يطلق عليه أساتذة فقه اللغة "الأنتوماتوبيا" مثل Cough الإنجليزية بمعنى "يكح أو يسعل"، ويكح العربية المولَّدة هي نفسها أنتوماتوبيا... وواضح نحت الإله "تشو" من صوت عطس الإله "أتوم"، ونحت الإلهة "تف نوت" من صوت البصق المصري القديم وهو "تف"، والذي لا يزال موجودًا في العامية المصرية... هذا النحت اللغوي يقطع بأن المصريين عرفوا الآلهة، ووضعوا قصصًا لتسميتها منذ العصور الحجرية (والإله الأول "أتوم" يحكي صوت ا لانفجار).

(**) "كان صباح.. وكان مساء" "أبهى من زنابق الحقول" "الأشياء والنباتات والدبابات"... ألفاظ كثيرة في المتن المصري يظهر صداها في العهدين القديم والجديد، والنطق باسم الإله الأول المصري "أتوم" يذكـِّـرنا باسم الإنسان الأول في العهد القديم "آدم".

سفر "المهد"

الإصحاح الأول

سكنت سلالات النّيلوس، أي الجبتوس، في البراري المصرية شرقًا وغربًا، وكانت أكثر هذه السلالات تسكن في براري غرب النيل... هذه الأقوام "الجبتية" كانت من نسل إلهي؛ لأنها تَمُتُّ بدمها إلى التوائم المزدوجة، التي كانت نتاج زواج "أتوم" بالربة السماوية "قمة الغرب"، أو نتاج زواج "خنم" بالربة جبتانا، أنثى التوأم المقدس جبتو.

بعد أن أمر رع معاونيه من الأرباب والملائكة، بفصل التوائم المزدوجة، والتي كان كل توأم منها عبارة عن ذكر وأنثى متلاصقين ظهرًا لظهر... فقدت تلك التوائم أبديتها الإلهية، وأصبحت حيوانات بشرية تتوالد وتموت، وتوالدت تلك الأنسال وزادت في البراري الغربيّة.

كانت البراري الغربية، وكذلك الشرقية، في زمن وجود الآلهة على أرض مصر، جنات معروشة، مليئة بالثمار والفاكهة، والورود والرياحين، كما كانت مليئة بالفرائس التي تصلح للحيوان البشري المقدس.

لكن بعد أن زادت الشرور والآثام على الأرض، وسُفِكَتْ الدماء، وتحوّل الإنسان فصار كوحوش الغاب، وبعد أن علا صوت الأبالسة والشياطين والجن والمردة والتنانين والمسوخ... حاول رع وبقية التاسوع المقدس التصدي لهذه الشرور... وبالفعل قضوا على الكثير منها... لكنْ... في النهاية قرر رع والتاسوع المقدس أن يهجروا الأرض إلى السماء.

بمجرد أن هجرت الآلهة أرض مصر، تصحـَّرت الفيافي الغربية [1] والشرقية، ونضبت مياهها، وجفت غدرانها... ترتّب على ذلك صراع رهيب بين عائلات النّيلوس الجبتية، التي كانت تقيم في كهوف الفيافي والبراري الغربية... قبيلة تُغِيْر على قبيلة، يحدوها قانون البقاء، والقبيلة المنتصرة ربما تبيد القبيلة المنهزمة إبادة كاملة... بل ربما كانت "أمخاخ المهزومين وأكبادهم وقلوبهم" وليمة أولى للمنتصرين.

ولهذا بدأ الزحف البطيء في اتجاه النيل.

فروع النيل في ذلك الزمان السحيق. كانت تنتشر شرقًا وغربًا، وتمر ببحيرات وبرك ومستنقعات وأدغال... وربوع النيل كلها مليئة بالجنات المعروشة، والظلال الكثيفة، وأسراب الحيوان البري والفرائس، والحيوانات المتوحشة والطيور والزواحف... مخاطر الوحوش والزواحف يمكن التصدي لها بالأسلحة الحجرية وبتجمُّعات الحيوان البشري...

لكن... كانت هناك مخاطر أشد جسامة... كانت الشائعات والأساطير تتحدث عن المسوخ والتنانين ووحوش الأوتان وأبي الهول، التي تسكن في الهضاب البيضاء المطلة على النيل؛ ومن ثَمَّ تتسلل في الأدغال النيلية.. وتصف الأساطير القديمة تلك المسوخ، بأنها كانت كائنات نصف بشرية: الأوتان مسخ مولَّد من القردة والإنسان... وأبو الهول مسخ آخر مولَّد من نوع منقرض من السباع والإنسان... هذه المسوخ لم تكن تتوالد فيما بينها؛ إذ ليس فيها إناث، بل تُغِيْر على الأطراف في ظلمة الليل، وتخطف بنات الإنسان، ويغتصبون بنات الإنسان وينجبون منهن مسوخًا أخرى... وتروي الأساطير، أن تلك المسوخ الليلية كانت أقرب إلى الخفافيش في طبيعتها؛ فهي لا تظهر في النور، بل تخشاه، وتختفي في أوكارها بالنهار، وتخرج في ظلمة الليل، فتعيث فسادًا في أماكن وجود البشر؛ فتخطف النساء وتقتل الذكور... ولا يستطيع البشر التصدي لها.

الإصحاح الثاني

ويزداد التصحُّر عامًا بعد عام في البراري غرب النيل.. وتقل المياه، وتقل الثمار والفرائس، ويحتدم الصراع من أجل البقاء، وبالرغم من مخاطر وأهوال المسوخ، التي يشاع أنها مسيطرة على أدغال النيل، فكّرت قبيلة "جبتو" في الاتجاه شرقًا إلى أدغال النيل ومياهه، وإلا تعرَّضت للفناء على أيدي المتوحشين المتخلِّفين من "المشوش"(٢).

"جبتو... جبتو... جبتو".. صوت من مقطعين تردِّده قبيلة جبتو المنحدرة عن الآلهة، والمتجهة إلى الشرق في اتجاه أدغال النيل، حتى لا تفنى بيد المشوش المتخلِّفين، آكلة لحوم البشر... "جبتو" صوت تستخدمه القبيلة "كشِفرة خاصة بها، يتنادون به للتعرُّف والتميز أثناء إقامتهم في البراري الغربية... وهم يتنادون به الآن، أثناء زحفهم المتأنِّي إلى أدغال النيل... إن هذا الصوت "جبتو" تستخدمه القبيلة للتعارف والتميز، تمامًا كما تستخدم عائلات النمل والنحل الرائحة والتلامس للتعارف والتمييز.

عائلة جبتو المنحدرة من نسل الآلهة، واحدة من عائلات الحيوان البشري المتجهة شرقًا إلى وادي النيل، تحدوها الرغبة في البقاء... حاولت عائلات أخرى من الهمج المتخلِّفين، الذين ليسوا من نسل الآلهة الإقامة في أدغال النيل، ولكن هذه القبائل والعائلات فنيت عن آخرها، وأكلتها الوحوش والمسوخ؛ إذ لم تكن تحظى بتوفيق الآلهة(٣).

تزداد كثافة الأدغال، وتزداد الغدران والمستنقعات، كلَّما اقتربت عائلة جبتو من النيل... وكذلك كثرت الثمرات والفرائس... وبالرغم من حرارة الصيف، إلا أن الظلال والمياه قلَّلت الحرارة كلَّما اتجهوا شرقًا... كان "جبتو مصرايم" زعيم هذه القبيلة، وأكبر الجميع سنًا وخبرة، لهذا كانوا يأتمرون بأمره، وينفذون كلماته القليلة الحاسمة... وكان "جبتو مصرايم" قد سمع الكثير عن أهوال أدغال النيل وعن المسوخ والتنانين؛ لهذا كان يسير بحذر هو ومن معه، وإن أقاموا للراحة والصيد، كان يختار تلة عالية تكشف ما حولها، ولمَّا اقتربوا من مياه النيل كان يحذر الجميع من النّيلوس أو المياه الهادرة الحمراء، حتى صار "النّيلو" أو النيل علَمًا على ذلك النهر العظيم.

وجد "جبتو مصرايم" نفسه وقبيلته بالقرب من مساحة ضخمة من "النيلو" أو المياه الهادرة المتدفقة الحمراء... واختار تلّة مرتفعة من الحصى والرمال، تحيط بها الأدغال ليقيم عليها معسكر القبيلة.

اشترك الجميع فحفروا أضلاعًا أربعة، تكوّن مربعًا يقترب من مساحة فدان. عُمِّقت الأضلاع المحفورة... ثم اتجه الجميع بأدواتهم الحجرية إلى الأشجار، وأخذوا يقطعون الأغصان، ويضعونها متلاصقة على هيئة سور داخل الأضلاع المحفورة، ثم يهيلون التراب والحصى على أصولها فتقف ثابتة... وهكذا تكوّن حائط نباتي حول المعسكر... وفي الجنوب الغربي تركوا مدخلاً مموهًا، مُغطّى بحزم النباتات والأغصان، ولا يستطيع الداخل أن يمر به، إلا إذا سار على يديه وركبتيه... وهو أثناء ذلك، لا بد وأن يُحْدِث خشخشة بين الأغصان والحزم النباتية يشعر بها حراس المعسكر.

في مركز المعسكر يقع مقر جبتو الأكبر، جبتو الزعيم، أو "جبتو مِصْرايم" كما كانوا ينادونه... ومن "جبتو" جاء اسم أرض الآلهة "جبتو" أو "جبتانا" في لغتنا الجبتّية... ومن الاسم الثاني "مصرايم" كانت "مصر" عند العبرانيين والساميين والأدوميين.

مقر "جبتو مصرايم" عبارة عن خصٍّ صغير مكعّب، مع ميل للاستدارة، مؤسس على ثلاثة أضلاع، أقيمت بنفس الطريقة التي أقيمت بها الجُدُر الخارجية للمعسكر، والضلع الناقص لذلك الخصّ يمثّل الباب... ووضعت أغصان أفقية وحِزم من اللوتس والبردي والبامبو والبوص لتكوّن سقف ذلك الخص.

في هذا الخص، يقيم "جبتو مصرايم" الآمر الناهي بإشاراته وكلماته القليلة، إنه رأس هذه الجماعة من الحيوان البشري، وإنّه -في مركزه من هذه الجماعة- يشبه -إلى حد كبير- الملكة في عالم الحشرات الاجتماعية كالنمل والنحل... وعلينا ألا ننسى أن جبتو مصرايم، والجبتيين، من نسل الآلهة.

الإصحاح الثالث

اجتمع الجبتيون قبل الغروب على طعامهم بالقرب من خصّ جبتو مصرايم. وكان طعامهم، في ذلك اليوم، بعض الجذور الدرنّية، وكمية كبيرة من الموز الأخضر جمعوها من شواطئ البحيرة، وعدّة أوزّات وبطّات اصطادها فتيان القبيلة... ولفرط الجهود والتعب نام الجميع بالرغم من البعوض والحشرات الليلية.

في الصباح نهض الجميع على شقشقة الطيور، وأصوات القردة على الأشجار، وأصوات فرس النهر في البحيرة والنيل.... وكان الفتيان والغلمان قد عادوا من الصيد والالتقاط... خرج جبتو مصرايم من خصّه يتوكأ على عصاه ذات الرأس الحجرية؛ فوجد حشدًا من الفتيان والفتيات والغلمان والأطفال... أحدُهم يقدم للجدّ جبتو مصرايم قطعة من كبد الصيد لا تزال تدمي، فيلتهمها جبتو، ويقدم آخر قطعة من مخ الصيد، وقد وضعها على ورقة كبيرة من أوراق الشجر... وصَبيّة صغيرة قدّمت لجبتو عدّة بَيْضات من بيض أوز البحيرة، فأخذ جبتو يكسر البيض ويبتلع ما فيه... ثم جلس الجميع للطعام بعد أن سجدوا لرع عندما أشرق عليهم بنوره.

كان الجميع سعداء بهذا الرخاء والطعام الوفير... وكذلك كان الجدّ جبتو، إلاّ أنّ سعادته كان يؤرقها شعور غامضٌ بالخطر؛ لما تحويه الأدغال النيلية من مخاطر، وكان جبتو مصرايم يشعر في أعماقه بأن العدد الكبير قادرٌ على مواجهة الخطر (٤)؛ لهذا كان يشعر بالسعادة كلما حملت فتاة أو امرأة من القبيلة وولدت طفلاً أو طفلة.. بل إنّه شعر بالتفاؤل، حين وضعت صبية في الرابعة عشرة توأمًا من ذكر وأنثى... وقال جبتو في نفسه: "شكرًا لرع، الذي يرعانا -نحن نسلُ الآلهة- وسوف يحمينا من الخطر، ويجعلنا كثيرين كنجوم السماء وكرمل الصحراء".

تحرّكت الأغْصان في المدخل المموّه للمعسكر، وخرج من تحتها مجموعة من الشبان والغلمان ناهضين، بعد أن كانوا يسيرون على ركبهم.. وكانوا يحملون أوراق الموز، تقطر ماءً، وبداخلها صيدٌ جديد... وضعوا صيدهم على بعض الغصون والأعشاب أمام جبتو... دُهشَتْ القبيلة كلها لمنظر تلك الكائنات المبللة بالماء، والتي لا تزال تضطرب فيها الحياة والحركة... بعض هذه الكائنات عليها قشور فضّية لامعة، وبعضها ذو جلد أملس يصعب الإمساك به.

كان الشبان والصغار والرجال ينظرون بعجب إلى الجد جبتو؛ حيث بدا عليه أنه يرى هذه الكائنات لأول مرّة، في حين أن الجميع يتصورون دائمًا أن جبتو يعرف كل شيء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض أو في السماء.

بإشارة من جبتو، تقدَّمتْ مجموعة من الفتيات بسكاكينهن الحجرية، وأخذن يمزِّقن الأسماك قطعًا صغيرة... وأكل الجميع من ذلك اللحم الطري الطازج، واستمتعت العائلة بهذا الصيد الجديد الذي يتميّز بسهولة مضغه وطعمه اللذيذ.

خرج جبتو من المعسكر ومعه حشد من الجبتيين، واتجهوا إلى مكان عند شاطئ البحيرة... وحين رأوا عددًا كبيرًا من الأسماك محصورًا في جدول صغير؛ نزل الغلمان والفتيان فاصطادوا كمِّيَّة أخرى من الأسماك.أخذوا يرمون بها إلى الشاطئ، ويتضاحك الصغار وهم يجمعونها ويمسكون بها وهي تتحرك بحركاتها الراقصة.

وفجأةً يتحرك في الماء زاحف ضخم، ويتجه إلى الغلمان فاغرًا فاه المليء بالأسنان... أسرع الواقفون على الشاطئ وأخذوا يقذفون ذلك الزاحف بالأحجار والصخور، بينما أسرع الغلمان في الخروج من الماء.. وارتد الزاحف على أعقابه؛ لأن الفرائس هربت، ولأنّ وابلا من الحجارة أُطْلِق عليه... وعاد الجميع سالمين إلى المعسكر، ومعهم صيدهم، وظل الجدّ جبتو مُوَزَّعا بين الشعور بالسعادة بهذه الخيرات الكثيرة، والشعور بالخطر الذي يتهدّد القبيلة في أدغال النيل.

الإصحاح الرابع

استقرّت القبيلة الجبتية في هذا المكان المطل على طرف بحيرة تتصل بالنيل، وطاب المقام للقبيلة في معسكرها الجديد: رزق كثير وطعام وفير، ولا صراعَ مع عائلات بشرية أخرى... الصغار من البنين والبنات يجمعون الثمار والجذور الدرنيّة المنتشرة في كل مكان، كما يجمعون بعض الطيور والبيْض... والشبان يجمعون الأسماك والطيور من البحيرة وأجوار النيل وشطآنه والمستنقعات، وبعض الرجال يشتركون في صيد الفرائس من الأدغال.

مضت شهور، ودار رع في السماء ما يزيد على مائتي دورة، وتوالت وجوه خنصو، إله القمر، المتعددة مراتٍ ومرات، ونحن الآن على مشارف بشنس من شهور الفيضان... لا مشاكلُ تواجه الجبتيين في معسكرهم... صحيح أن الجميع يعانون من حشرات الليل القارصة، خصوصًا وأن الأجساد تكاد تكون عارية إلا من بعض القطع من جلود الحيوان أو ألياف الشجر تدور حول الحقوين، وتنسدل بين الرّجلين من أمام ومن خلف... لكنّ الجمْاعة احتالت على ذلك بطلاء الأجسام بالطين إذا ما أقبل الليل.

مات غلام؛ فقد لدغته أفعى أثناء الصيد، حفروا له حفرة خارج المعسكر، وأجلسوه القرفصاء داخل الحفرة، ثم أهالوا عليه التراب والحصى، وجمعوا كمية من الصخور والحجارة وضعوها فوق قبره؛ حتى لا تصل إلى جسده حيوانات الليل النابشة... وتذكّر الكِبار من الجماعة حياتَهم في براري الغرب وكهوفه، ودارت في رءوسهم تلك الحوادث القديمة؛ حين كانت القبيلة تتخلص من المرضى وكبار السن برميهم من فوق المرتفعات، أو بتركهم فريسة لوحوش البراري.

الموت إذن حدثٌ عابر، والمهم أن يكون عدد المواليد أكبر من عدد الوَفَيَات؛ حتى تنمو قبيلة جبتو وتشعر بالأمان. فالنّساء يلدن، والأطفال ينتمون للرمز الإشاري للقبيلة "جبتو"، كما ينتمون لأمهاتهم... ولم يكن العرف في ذلك الزمن السحيق يهتم بتنظيم دقيق للعلاقة بين الذكور والإناث؛ فالذكور كلّهُم للقبيلة، والإناث كلّهن لها، وكذلك النّسل الجديد.

"جبتو الصغير"... ابن "جبتانا" إحدى نساء "جبتو مصرايم"... الجميع ينادونه "جبتو جبتانا" صبيّ صغير في الخامسة عشرة، صافي البشرة، واضح الحيويّة سريع الحركة.

وبرغم صغر سنه، إلاّ أن "جبتو جبتانا"، كان يتسلل وحيدًا خارج المعسكر، غيرَ مبالٍ بتحذيرات "جبتو مصرايم" التي تنهى عن سير الأفراد منفردين... يخرج من المعسكر خلسةً، ويمشي على حواف البحيرة وشواطئ النيل. يلهو -أحيانًا -بإلقاء الأحجار على سطح الماء، ويتابع تلك الدوائر المتعاقبة على سطح الماء... ويلهو أحيانًا أخرى بمتابعة الأسماك الطافية "أو مجموعات الأوز والبط... وكان جبتو الصغير إذا شعر بخطر ما؛ فإنه يسرع إلى تسلّق أقرب شجرة له، وكان مشهورًا له بأنه أقوى وأسرع متسلّقي الأشجار، ولم يكن يخشى قردة الأشجار بل كان يداعبها ويعابثها، فهي مثله تحبّ اللهو.

في ذلك اليوم من شهر بشنس، كان جبتو الصغير يسير كعادته قريبًا من البحيرة، وشعر بأقدام تدوس الأوارق الجافة على أرض الغابة؛ لهذا أسرع إلى الصعود على إحدى الأشجار... بخفه وسرعة، وصل إلى قمة عالية من قمم تلك الشجرة... اتضح المنظر أمامه على أرض الغابة والبحيرة؛ فهذه مجموعة من فتيان وغلمان العائلة، تخوض جزءًا ضحلاً من البحيرة لاصطياد الأسماك... وتابع جبتو الصغير، من مقرّه العلوي، الغلمان وهم يتصايحون ويتضاحكون أثناء صيدهم للسمك، كما تابع "تينو" و"رامو" وهم يتعقبون مجموعات الأوز والبط... وبدا لجبتو الصغير أن ينزل ليشترك مع الغلمان والفتيان، إلا أنّه لمح من مكمنه فوق الأشجار، اثنين من ذلك الزاحف الضخم، ذي الفم الواسع المليء بالأسنان، وهما يتّجهان نحو الغلمان، مستترين بالماء وبالظلال الكثيفة للأحراش قبل مغيب رع... أطلق جبتو صيحات التحذير؛ فأسرع الفتيان بالخروج من الماء، إلا صبيًا صغيرًا، تعثّر في بعض النباتات، ولم تسعفه حركته فابتلعه أحد التمساحين (٥).

أدار "جبتو جبتانا" وجهه إلى الاتجاه الآخر؛ حتى لا يرى منظر افتراس الصبيّ. وخُيّل لجبتو الصغير أنه سمع أسنان التمساح وهي تمزق عظام الصبيّ. فأسند جبتو جبهته على مؤخرة قبضته الممسكة بغصن من أغصان الشجرة... ومرّت دقائق شعر بعدها جبتو بتكاثف الظلمة على أرض الغابة... وشم جبتو

رائحة خبيثة... وكان ينوي التسلق هابطًا. إلا أنّه ثبت مكانه؛ فقد رأى على أرض الغابة مسوخًا بشعة من أشباه البشر، تسعى متلفعة بالظلمة في اتجاه المعسكر... وتذكّر جبتو الصغير تلك القصص الغامضة عن المسوخ والتنانين وأبي الهول؛ فأطلق صيحات التحذير.

الإصحاح الخامس

كانت القردة فوق الأشجار، تشارك جبتو الصغير قلقه لرؤية هذه الكائنات البشعة وشم رائحتها الخبيثة؛ إذ أخذت القردة تُحدِث أصواتًا عالية بأفواهها أشبه بالطقطقة، وكأنها تشارك جبتو في إطلاق أصوات التحذير.

ولبث جبتو الصغير في مكانه، وتذكّر حديث جبتو الكبير عن هذه التنانين المسوخ واختطافها للنساء وأكلها للرجال... مرّ ذلك كلّه، وهي تسير بخطوها الثقيل في اتجاه المعسكر... ومرةً ومرات، يرسل جبتو صيحات التحذير.

وسمع جبتو أصوات الصراخ والأستغاثة، والكرّ والفرّ، وبالرغم من عدم وضوح الرؤية مع مقدم الليل، إلاّ أن جبتو من مكمنه بين الأشجار، رأى صورة عامة للتدمير والخراب... وانكمش جبتو بين الأغصان حتى انتهى الفزع والأنين والصراخ، وحتى هدأت الحركة تمامًا في المعسكر... ورأى المسوخ وهي تنصرف بخطوها الثقيل حاملة النساء والبنات... وخفّت الرائحة الكريهة، ثم تلاشت تمامًا.

نزل جبتو الصغير، ودخل المعسكر، ورأى هول ما حدث: النساء والبنات جميعًا اختطفهن المسوخ... والذكور من الرجال والغلمان والصبية قُتلوا أبشع قتلة، وشُدِخت رءوسهم بالأحجار لاستخراج الأمخاخ، كما بُقِرتْ البطون والصدور لاستخراج الأكباد والقلوب... والدماء تنزف في كل مكان. والموت مُخيّم على المعسكر.

سمع جبتو الصغير صوت أنين وألم بين أغصان المعسكر؛ فتقدم بحذر ليفتّش عن مصدر الصوت، ففوجئ بجبتو مصرايم، ينزف دمًا من رأسه إلى قدميه، فأقبل عليه يحاول إيقاف الدم النازف، إلا أن جبتو الكبير أشار إليه حتى ينتبه لما يقول: "اسمع يا بني: إن هذه المسوخ سلالة كائنات مدمّرة قديمة، توالدت زمن صراع الآلهة مع الأبالسة والشياطين والتنانين، وبعد أن هجرت الآلهة أرض جبتانا إلى السماء، حكمت على المسوخ بألاّ يكون لها نسل، إلا أن المسوخ التي حُرِمت من أن يكون بينها إناث تلد، استعاضت عن ذلك بأسر نساء سلالة الآلهة واستيلادهن... إن هذه المسوخ من بقايا آكلات لحم الآلهة وأنسال الآلهة... يابني: إن رع وعدني بأن يستمر نسل الجبتيين أبد الآبدين... إن هذه المسوخ كالخفافيش

تخشى النور، كما تخشى نار الإلهة نوت... لا شأن لهذه المسوخ بالشجر؛ فالجأ يا بني دائمًا للأشجار، ولتصنع لنفسك ملجأ فوق الشجر تقضي الليل فيه.

هدأ صوت جبتو الكبير ثم خَفُتَ، وأخيرًا صَمَتَ وهدأت حركته، وصار جثة هامدة، وسقط جزعه المرتكن على شجيرة أمالتها أرجل المسوخ الثقيلة.

ومع التعب والإرهاق والإحساس بالعجز والخوف؛ تكوّر جبتو الصغير على نفسه بين حزم نباتات السور... وشعر جبتو ببرودة الجو، ربما لفرط خوفه وضياعه فدفن نفسه بين حزم البردي واللوتس، بالقرب من جثة جبتو الكبير... وراح جبتو الصغير في سباتٍ عميق.

هوامش سِفْـــر "المهد"

١- كانت صحراوات مصر جنات معروشة في العصر الجليدي.. ولمـــا جاء عصر الجفاف تصحـرت البراري المصرية، واتجهت سلالة ما (ربما النيلوس) إلى حـــوض النيـــل فـــي العصـــر الحجري القديم والحديث. (جون ويلسون: الحضارة المصرية. جيمس هنري برستد: فجر الضـــمير. سليم حسن: مصر القديمة.).

٢- المشوش: قبائل أكثر عنفًا وأقل ذكاء... ربما تكسب في جولات أولى ولكنها تخسر فـــي النهاية بحكم بقاء الأصلح، ولعلها آخر إنسان نياندرتال.

٣- توفيق الآلهة: تعبير مألوف لعلّه يعبّر عن أن الأكثر ذكاء هو الذي يكسب فـــي صـــراع البقاء، أما الأغبياء فينقرضون.

٤- العدد الكبير يقوّى فرص الكائنات في صراع البقاء؛ ولهذا كان الميـــل للتكـــاثر صـــفة غريزية جـــُبـــلـــَت عليها كلُّ الكائنات وفصائل الحيوان، بما في ذلك الحيوان البشري.

٥- سرعة الحركة والذكاء تؤدي إلى استمرار الجنس. التمساح في اسمه العربي، قريب من "أمسوح" باللغة المصرية؛ وبدهي أن العرب ليست في بيئتهم تماسيح. (راجع: لويس عوض: مقدِّمـــة في فقة اللغة العربية).

سِفْر "النار والعالم الآخر"

الإصحاح الأول

استيقظ جبتو الصغير من نومه، وقد نبّهته حرارة الشمس غير المعهودة في هذا الوقت من الصباح؛ أخرج جبتو الصغير نفسه من بين حزم اللوتس والبردي، وتذكّر كلّ ما حدث في ليلة الرعب الماضية... اتجه جبتو الصغير إلى حيث ترقد جثة جبتو مصرايم؛ فاكتشف أن الجثّة ازدادت تصلّبًا وتشنّجًا... وفي الحقيقة، كان جبتو يشعر برغبة في التخلّص من منظر الجثة ووَجْه جبتو مصرايم الميت، ولكنّه أقنع نفسه بضرورة دفن الجثة حتى لا تعتدي عليها وحوش الليل... أخذ بسحب الجثة من قدميها العاريتين، حتى وصل إلى الخندق الذي يمثّل الضلع الجنوبي للمعسكر؛ فأقتلع الأغصان والحزم، ودفع بجثة جبتو الكبير إلى الخندق. وظل يهيل التراب والحصى حتى واراه... وشعر جبتو الصغير بالرضا عن نفسه، بعد أن نوارى عنه ذلك الوجه الميّت لجبتو مصرايم.

ترك جبتو المعسكر، واتّجه لأطراف البحيرة بحثًا عن الغذاء، وكان شديد الحذر في حركته عند أطراف البحيرة؛ خوفًا من الوحوش، وخصوصًا ذلك الزاحف الضخم "التمساح".. جمع جبتو كمية من الموز والجذور وبعض الأسماك، ثم اتجه إلى شجرته المفضّلة، فصعد إلى شعبتها وبدأ يستعدّ لوجبة الصباح... ونظر جبتو أسفل الشجرة؛ فوجد اثنين من تلك الكلاب الذئبية من نوع الأنوبيس، وهي تتشمّمُ المكان أسفل الشجرة وكم كانت سعادته لظهور تلك الكلاب، التي تعوّدت أن تكون في أجوار القبيلة، حينا كانت القبيلة تقيم في منطقة التلال الغربيّة.

وضع جبتو طعامه فوق شعبه الشجرة، التي قرّر أن تكون ملجأه، ثم أخرج سكينه الحجرية ليقطع الأسماك. وفجأةً سمع صوت الاستغاثة برمز القبيلة: "جبتو"؛ فاتّجَه إلى مصدر الصوت بعينيه، وكم كانت سعادته!! إذ كانت الاستغاثة صادرة عن "جبتانا" الصغيرة؛ وهي واحدة من بنات القبيلة في مثل سنّه. رآها تقف على شعبه شجرة ليست بالبعيدة، فأشار إليها بكلتايديه ورفع صوته مجاوبًا إياها بالرمز الإشاري الصوتي للقبيلة: جبتو.. جبتو... فتهلّل وجه جبتانا الصغيرة، وبدا البِشْرُ على وجهها وحركاتها بالرغم من بُعْد المسافة بينها وبين جبتو.

جمع جبتو الصغير طعامه كلّه في أوراق الموز، وأخذ يتسلل بين أغصان الشجر المتشابكة، حتى وصل إلى جبتانا، التي بدأت تلمس كتفه ورأسه، وكأنها تتأكّد من حقيقة وجود جبتو... ووجد جبتو أن جبتانا قد صنعت لنفسها فراشًا فوق إحدى شعب الشجرة، مستخدمة في ذلك بعض الغصون وبعض حزم البردي واللوتس التي انتزعتها من سور المعسكر.. جلست جبتانا أمام جبتو الذي وضع طعامه على الفراش... وأكلا طعامهما، وشربا الماء من وعاء صُنِع من عُقْلة واحدة من عُقَلِ نبات البامبو، وبدأت جبتانا تقصّ على جبتو ما حدث لها في يوم المسوخ الرهيب: "... حين سَمِعْتُ أصوات الإنذار، شمَمْتُ تلك الرائحة الخبيثة للمسوخ، ووجدت المسوخَ تجري هنا وهناك بأقدامها الثقيلة، وتقتل الذكور، وتأسر النساء... فجَرَيْتُ بأقصى سرعتي، وسَقَطْتُ في حفرة من خندق السور، وسقَطتْ عليّ وأنا في مكاني بعضُ حزم البردي واللوتس، فلم أتحرّك من مكاني خوفًا من أن تشعر بي المسوخ، واستمرّت المذبحة وأصوات الاستغاثة والأنين والكرّ والفرّ وصراخ الإناث... وابتدأت المسوخ تتركُ المعسكر، حيث ساد الهدوء، كما تلاشت رائحة المسوخ؛ عندئذٍ، خرجْتُ من مكمني، فتسلقْتُ الشجرة، وصنعْتُ الفراش الذي ترى، وقَضَيْتُ الليل فيه".

ارتفع قرص رع الذهبي أكثر وأكثر، وتلاشت سحب الصباح؛ فقامت جبتانا، شاعرةً بالدفء والأمن في وجود جبتو... وأراح جبتو رأسه مستندًا إلى غصن قريب، ونظر جبتو إلى صدر جبتانا العاري وكأنّه يراه لأول مرة... ثم نظر إلى الكلاب أسفل الشجرة، وقد هدأت بعد قتالها مع القردة بسبب بقايا الطعام التي كان قد رمى بها أسفل الشجرة... وسرح جبتو بفكره ونظره إلى المعسكر، فرأى ما حدث من تخريب، وأخذته سنةٌ من نوم.

الإصحاح الثاني

نبحت الكلاب بشدّة؛ فانتبه جبتو من غفوته، فوجد الكلاب تطارد صغيرًا من أفراس النهر قد ضلّ طريقه بعيدًا عن أمّه التي جاءت لنجدته... وعجب جبتو إذ تذكّر أنه كان مع جبتو الكبير في غفوته، وأخذ جبتو الكبير يحذّره، من جديد، من المسوخ. وينصحه بالتزام الحذر. ونظر جبتو الصغير من مكمنه فوق الشجرة إلى حيث قبر جبتو الكبير... فاحتار فِكْرُ جبتو الصغير بين تعدّد صور جبتو الكبير: جبتو الكبير الحقيقي الذي قتلته المسوخ ودفنه هو في أصل السور، وجبتو الكبير الذي طاف به هو نائم، وجبتو الكبير الذي يتخيّله كلّما نظر إلى خصّه في مركز المعسكر... من خلال هذه الحيرة. بدأ جبتو الصغير يدرك أنّ هناك عالمًا آخرَ أثيريا خالدًا، يقف وراء هذا العالم الخُشِن الذي يعاني فيه... إن ذلك العالم الأثيري هو عالم رع والآلهة التي أرسلت كلاب الأنوبيس... وقال جبتو الصغير لنفسه: "ما أعظم رع الذي وهبنا كلاب الأنوبيس لحراستنا. أنا وجبتانا. وما أعظم رع ونوت اللذين جعلا للمسوخ رائحة خاصة. وكأنّ هذه الرائحة نذير من الآلهة لنا حتى نحترس من المسوخ... إننا نحن أبناء جبتو مصرايم من سلالة الآلهة... ولهذا فإنّها ترعانا.".

انتبهت جبتانا من غفوتها. سعيدة بوجود جبتو بجوارها. بالرّغم من ملاحظتها لنظرات جبتو المتلصصة إلى أجزاء من جسدها... ولمّا كان جبتو وجبتانا يشعران بالأمن والانتعاش. نزلاً من مرقبهما فوق الأشجار، وتجوّلا في المعسكر أوّلاً. حيث رأيا بشاعة ما حدث. واشترك الفتى والفتاة في جر بقايا الجثث وإلقائها بعيدًا عند أطراف البحيرة قريبًا من النيل.

بعد مجهود العمل شعر جبتو وجبتانا بالجوع؛ فتجوّلا معًا حول البحيرة وفي الأدغال القريبة من النيل. وجمعا بعضًا من الموز والثمار والدرنيات. واستطاع جبتو، بعصاه ذات الرأس الحجرية أن يصطاد سمكتين كبيرتين من أحد الجداول... أخذا طعامهما. وارتقيا إلى مقرّهما العلويّ فوق الاشجار، وأعمل جبتو سكينه الحجرية في السمكتين وأعدّهما للأكل. وأخذا يتناولان طعامهما... وبعد الطعام تشاغلاً في متابعة العراك بين الكلاب والقردة على بقايا الطعام.

كان الوقت قرب المساء، في شهر الخريف هاتور، وتقدّم المغيب سريعًا، وغاب قرص رع الذهبيّ، وبدأت الظلمة تخيّم على الأحراش، وشعر جبتو وجبتانا بالبرودة فنزلا وأخذا بعض حزم البردي واللوتس الجافة، وصعدا بها إلى الشجرة ليستخدماها فراشًا وغطاءً.. وازداد الجوّ كآبة بتزاحم السحاب في السماء، حتى توارى "خنصو" إله القمر بوجهه الفضيّ... وتلاصق الفتى والفتاة بين حزم البردي واللوتس... وبدأت أصوات قطرات المطر، تردّدها أوراق الشجر.

فجأةً تسرّب الخوف والقلق إلى جبتو وجبتانا؛ فقد شمّا الرائحة الكريهة للمسوخ، وبدأت القردة على الأشجار تعبّر بأصواتها عن القلق، وشاركتها كلاب الأنوبيس قلقها بنباحها وجريها هنا وهناك... صحيح أن التنانين ومسوخ أبي الهول ومسوخ الأوتان لا شأن لها بالأشجار، إلا أنّ خوف وقلق جبتو وجبتانا مردّه إلى شعورهما بأن المسوخ لا تزال تترصّد المعسكر ومَنْ فيه... أخذ الفتى والفتاة يتابعان من مكمنهما الحركة الثقيلة للمسوخ على أرض الغابة... وأخذت المسوخ تجوب المعسكر، وكأنها تبحث فيه عن شي ما.

ازداد صوت قطرات المطر تتابعًا، وهي تتخلّل أوراق الشجر... وأبرقَتْ السماء وأرعدَتْ... ومن خلال البرق رأى الفتى والفتاة المسوخ وهي تولّي مذعورة، وتذكّر جبتو ما قاله له جبتو الكبير عن المسوخ وطبيعتها التي تقترب من الخفافيش، وخوفها من نار الإلهة نوت [1] التي ترسلها لتحارب بها المسوخ... وأشعَلَتْ نيرانُ نوت الحزمَ الجافّة في سور المعسكر؛ فازداد اضطراب المسوخ وأخذت تهرول مسرعةً ومبتعدةً عن ضوء النار، بينما تنبحها كلاب الأنوبيس وتحاول مطاردتها... اطمأن الفتى والفتاة بعد هرب المسوخ، وشعرا بالدفء وهما بين الحزم الجافّة، كما شعرا بأن "نوت" ربة السماء العظيمة تساندهما وتقف إلى جوارهما... وناما بينما النار لا تزال مشتعلة في سور المعسكر، ولا تزال الكلاب تنبح تحت الأشجار.

الإصحاح الثالث

من جديد، وضعت "نوت" ربّة السماء العظيمة وزوجة "رع" شمسًا جديدة دافئة في الأفق الشرقي، واستيقظ جبتو وجبتانا مع مولد النور وشقشقة الطيور: فنزلا من بيتهما الشجري، وأخذا يتفقدان آثار النّار المقدسة التي أشعلتها نوت لطرد المسوخ.

كان الدخان لا يزال يتصاعد من بعض الأغصان المحترقة، يتصاعد الدخان إلى السماء، إلى حيث تقيم نوت مع رع، ويؤكد الدخان المتصاعد لنوت أنّ حربها ضد المسوخ حربٌ ظافرة [٢]، وأراد جبتو الصغير أن يلقي نظره اطمئنان على قبر جبتو الكبير: فأزاح جبتو بعض الحزم الجافة عن القبر، فسقطت بعض الحزم على الجذع المشتعل، فإذا بالنيران يعلو لهيبها الأحمر... تعجّب جبتو وجبتانا وتأكّد لهما أن الرّبة نوت لا تزال ترعاهما وتَنْظُر إليهما من مقرها السماوي... وجد جبتو نفسه يرفع يديه إلى السماء - إلى حيث يقيم الآلهة - ويخاطب نوت بترنيمة يحفظها عن جبتو مصرايم: "أيتها الربّة الأم نوت، يا زوجة رع رب الأرباب، ويا شقيقة حتحور التي تبتلع رع عند الغروب، وتلده مع الصباح... أنتِ أيتها المقدّسة نوت لا زلتِ تقودين حرب الآلهة ضد الشرور وضد المسوخ، وأرسلتِ نارك تحاربين بها المسوخ... ولا يزال الدُّخان يتصاعد إلى أنفك ليؤكّد لكِ نصركِ المظفّر على المسوخ... هيلا... هيلا..".

استمرّ جبتو وجبتانا يغذيان نار نوت بمزيد من الأغصان والحزم الجافّة: فتزداد النار اشتعالاً.

عمل جبتو وجبتانا على أن تظلّ نار نوت مشتعلة، وأخذا يمدّانها بالوقود من آنٍ لآخر... ولمّا لاحظا أن الأغصان الخضراء تستمرُّ مدّة أطول، أخذا يجمعان الأغصان الخضراء ويغذيان بها النار من حين لآخر.

اهتمّ الفتى والفتاة بإعادة المعسكر إلى حاله الأولى... كذلك جدّدا خُصّ جبتو الكبير، واتخذا منه بيتًا لهما، وأقاما خطًا من النار الدائمة قريبًا من مدخل الخص: يضمنان به ابتعاد المسوخ... كما أن كلاب الأنوبيس الحارسة تكاثرت بين نباتات سور المعسكر، وأصبحت -بنباحها -تشكّل طليعةً دائمة لحراسة

المعَسكر؛ فهي تُحدِث نباحًا عاليًا، مقرونًا بعدْوٍ هنا وهناك، إذا شعرت بحركة غريبة، أو اشتمت رائحة مُمَيّزة، أو أحست بأي صوت...

صار المعسكر آمنًا منذ أن أشعلت الرّبة نوت نارها المقدسة ضد المسوخ، ومنذ أن أقام الفتى والفتاة نارًا دائمة داخل المعسكر، عملاً على أن تظل مشتعلة ليلاً ونهارًا... ولم تعد المسوخ تقترب من المعسكر، بل إن وحوش الغابة التي كانت تقترب ليلاً من المعسكر، توقّفتْ عن الاقتراب من المعسكر؛ بسبب نار نوت المشتعلة، وبسبب كلاب الأنوبيس سريعة العَدْو.

سارت الحياة سيرها الطبيعي في المعسكر، وصار الخُصّ ملاذًا آمنًا لجبتو وجبتانا يضعان فيه ما يفيض عن حاجتهما من الموز والثمار والجذور، كذلك كانا يقضيان الليل معًا في الخص... ذات مرّة، كانت جبتانا تقطع السمك بجوار النار، فسقطت منها سمكة من أسماك القرموط فأخذت تتراقص وتزحف حتى سقطت في النار، فاضطربت في النار قليلاً ثم سكنت وهدأت حركتها، بعد فترة من الوقت أخرجتها جبتانا من النار، ولما أكلت شيئًا منها وجدت مذاقها أطيب؛ فأعطت جبتو بقية السمكة، فلما أكلها وجد طعمها أكثر استساغة.. وتذكّرتْ جبتانا "نوت" ربة السماء العظيمة فأخذت رأس السمكة وألقتها على الأحجار في طرف النار، فاحترقت وشَعَرت جبتانا بالارتياح، وحينما رأت دخان الرأس المحترقة يتصاعد في اتجاه نوت في السماء، ورفعت جبتانا يديها إلى السماء؛ حيث نوت، ورددت مزمورًا [٣] قديمًا كانت تردّده مع أمها في فترة الكهوف الغربيّة: "أيتها الأم العظيمة نوت... أيتها الربّة الخالقة نوت... يا مَنْ تتحولين إلى حتحور فتبتلعين الشمس في آخر النهار وتلدينها من جديد مع مولد كل صباح... أيتها الراعية لأبنائك على الأرض... يا طاردة المسوخ والتنانين بنارك المقدسة... يا واهبةُ النار ومانِحة الطعام الذي هو زاد الحياة... لكِ منا الشكر ولك منا المحبّة والتقدير... كوني معنا أيتها الربّة الأم... إليكِ رفعْتُ هذه التقدمة رائحة سرور لكِ، تصعد رائحتها إليكِ في السماء... هيلا.. هيلا".

ومرّة أخرى، اصطاد جبتو أوزتين من طرف دغل من أدغال البحيرة، فذبحهما وانتزع الريش، ونظفتهما جبتانا عند طرف البحيرة.. واحتفظ جبتو بالرأسين والأرجل والأحشاء... واستطاب جبتو وجبتانا مذاق الطائرين المشويين؛ وشعرا بمزيد من الأمن والسعادة... وبعد الطعام ألقى جبتو الرأسين والأرجل والأحشاء في النار،

فتصاعدت الرائحة إلى السماء، تقدمةً وتحيةً إلى نوت، ورفع كلتا يديه إلى السماء مرددًا هذه الترنيمة: "أيتها الرّبة نوت... يا ابنة شو وتفنوت... يا زوجة "جب" إله الأرض، ويا قبة السماء المتحوّلة إلى حتحور... يا بقرة الحياة التي ترتكز في سماء هذا العالم... أشكرك، أنا وجبتانا، أن وهبْتِ لنا نارَك أمنًا وحياة... ووهبتِ لنا كلابَ الأنوبيس تحرس معسكرنا... يا نوت لك منا هذه التقدمات على نارك، تحيّةً لك، ونَسْمةً تصل إلى أنفك في السماء.. هيلا.. هيلا".

الإصحاح الرابع

فاض النيل بضعَ مرات، وعبر قرص رع الذهبي أفق السماء عدّة مئات من المرّات، وبَدّل "خِنْصُو" ربُّ القمر وجوهه الفضّية مرّات ومرات... وتكاثُرَتْ كلاب الأنوبيس المقدسة بين نباتات سور المعسكر، وصارت جراؤها تجري وتلعب وتتعارك هنا وهناك... هذه الكلاب أرسلها تاسوعُ الآلهة لحراسة نسل جبتو مصرايم الذي هو من سلالة الآلهة، وبالفعل تفرّغتْ هذه الكلاب لتكون الديدبان الحارس لقرية جبتانا.

وتمرّ الأيّام والشهور ولا تزال نار نوت المباركة مشتعلة، وتمد هذه النار المباركة جبتو وجبتانا بالتفاؤل والأمل وبإحساس عميق بأن الآلهة معهما؛ لهذا يحرص جبتو وجبتانا على استمرار اشتعال هذه النار، يُمدانها من حين لآخر بمزيد من الأغصان... ويزداد هذا الحرص في الليل؛ حيث يمدّانها بأغصانٍ خضراءَ تستمّر مشتعلة حتى الصباح... وتثاقُلَتْ حركة جبتانا، وشَعُرَتْ ببعض آلام الحمل.

اكتشف جبتو وجبتانا أنهما في حاجة إلى سكاكين حجرّية جديدة، ورءوس حجرّية للعصيّ والرماح؛ فهما الآن في حاجة إلى مزيد من الأغصان والأعواد وحزم النباتات ليمدّا بها نار نوت، وليجدّدا بها أسوار المعسكر وجوانب الخُصّ من آن لآخر... كذلك صارا في حاجة متزايدة إلى صيد المزيد من الفرائس والأسماك لطعامهما، ولإطعام كلاب الأنوبيس التي تكاسلت في صيد الفرائس، وصارت عالةً عليهما في معظم الأوقات.

في صباح أحد أيام شهر برمودة الدافئة، سار جبتو وجبتانا غربًا؛ بحثًا عن منطقة صخريّة، يحصلان منها على قطع حادّة الحواف من الحجارة... سارا عدة ساعات تصحبهما طليعة كبيرة من كلاب الأنوبيس التي تتعارك أحيانًا معارك وهمية، وترسل نباحها من حين لآخر... وطاردت الكلاب مجموعة من الأرانب البرّية، مما سهّل لجبتو وجبتانا الإمساك بزوجين من الأرانب قاما بذبحهما وسلخهما، وتناولا أجزاءً منهما، دون استخدام النار، وألقيا بالبقايا للكلاب... ووصل جبتو وجبتانا إلى منطقة صخرية...

أخذ جبتو يحمل قطعًا من الصخور ويلقي بها على كتل الصخور الثابتة في الأرض؛ فتنكسر حواف الصخور... وجمع جبتو وجبتانا كمية من الصخور المُشَظّاة [٤] وضعاها في مقطف مصنوع من ألياف النّخيل... وهمّا بالرحيل.

نظرت جبتانا إلى أعلى تلك الهضبة الصخريّة؛ فلمحتْ كهفًا يشبه تلك الكهوف التي أقامت فيها وهي طفلة، قبل الرحيل إلى قرية جبتانا... وخُيّل إليها أنّها رأت دُخان نار نُوتْ أمام مدخل الكهف... تركَتْ جبتانا جبتو يستريح و يشرب الماء من وعاء البامبو، واتّجَهَت جبتانا إلى منطقة الكهوف... اقتربت من نار موقدة أمام أحد الكهوف، ووضَعَتْ كميّة من الحطب على النار؛ فتأجّجت وارتفع لهيبها، وانتظرت جبتانا أن يخرج أحدٌ من الكهف، لكن لم يظهر أحد، فتقدّمَتْ بحذر إلى فتحة الكهف، وأدخَلتْ رأسها؛ فشعرت بأنفاس لاهثة... وفجأة صرخ طفلٌ وطفلة، واندفعا كسهمين خارِجين من الكهف، ولّما رأيا جبتو غيّرا جريهما في اتجاه الشرق... ونبحت كلاب الأنوبيس، وعَدَتْ كأنها تطارد الطفلين.

من خلف نتوء بارز في أعلى الجانب الشمالي من الهضبة أقبل فتى وفتاة مُسرِعَيْن، وخلفهما مجموعة من الرجال والنساء والغلمان... وتوقّف الجميع باديًا عليهم أنهم قد تعرّفوا على جبتانا وجبتو، الذي سار في اتجاه جبتانا مسرعًا تصحبه كلابه... وصاح جبتو بالرمز الإشاري للقبيلة "جبتو جبتو"؛ فردّ الرجال والنسّاء بنفس الرمز الإشاري للقبيلة "جبتو جبتو"... وأدرك الجميع أنهم أفراد نفس القبيلة؛ فاقتربوا وتصافحوا وتلامسوا.

عند النار، وقريبًا من مدخل أحد الكهوف جلس الجميع وعلامات السعادة والرضا ظاهرة على الوجوه... وحتى كلاب الأنوبيس أخذ يشاغب بعضها بعضًا في مرح ظاهر... ونظر الطفلان لأمهما، كأنهما يسألان عن الضيفين؛ فأشارت الأم إلى الضيف ونطقت باسمه "جبتو" وأشارت للضيفة، ونطقت باسمها "جبتانا"، وأشارت إلى زوجها ونطقت باسمه "لابانو"، وأشارت إلى نفسها قائلة "لابانا"، وأشارت للطفلة وكأنّها تعرّف الضيفين باسمها: "كوفا" وللطفل: "كوفو".

قال لابانو لجبتو وجبتانا: "بعد مهاجمة المسوخ للمعسكر، هَرَبْتُ غربًا بعد أن تعثّر الأوتان الذي كان يطاردني في أخشاب سور المعسكر... وظَلَلْتُ أعدو حتى وصلْتُ إلى منطقة مفترق الطرق الغربيّة، فتوقفْتُ لالتقاط الأنفاس، ساعتئذٍ

تذكّرت الحكايات القديمة عن التنانين والمسوخ وأنّها لا شأن لها بالشجر؛ فتسلّقْتُ أقرب شجرة، وبعد فترة سمعت وقع أقدام تعدو، فصِحْتُ برمز القبيلة "جبتو جبتو" وطلبْتُ من الذين يَعْدُون أن يصعدوا إلى الشجر فصعدوا.. ثم جاءت مجموعة ثانية وثالثة... ولجأ الجميع إلى الشّجر... وعندما بزغ الوجه الذهبي لرع: صِحْتُ في الجميع: "هيا اهبطوا إلى الأرض، إنّ المسوخ تَعْشَى فلا ترى في النّور. فضلاً عن أنها تفقد معظم قدرتها إذا ما أرسل رع سهامه الذهبية[(٥)] أو إذا أشعَلتْ الرَّبة "نوت" نيرانها. ونزل الجميع. وسرنا حتى وصلنا إلى هذه الهضبة، والواحة والمياة العميقة المتاخمة لها.

الإصحاح الخامس

بعد حوار بين جبتو ولابانو وبقية اللاجئين إلى منطقة الكهوف، وافق هؤلاء اللاجئون لمنطقة الكهوف على العودة لقرية جبتانا، تلك القرية التي دُفِن بها جسدُ جدّهم المقدس "جبتو مصرايم"... وقد أكد جبتو للجميع أن المسوخ لم يَعُدْ لها وجود بعد اشتعال نار "نوت".

أحضر الجميع سكاكينهم الحجرية، وحرابهم ذات الرءوس الحجرية، وأوعية الشرب المصنوعة من عُقَل البامبو ومن الفخار، وبعض الأواني الفخارية المسطّحة... سار الجميع شرقًا في اتجاه النيل وجبتانا، واضعين عصيهم ذوات الرءوس الحجرية على أكتافهم، وقد علّقوا أشياءهم على الطرف الخلفيّ منها، بينما استراحت أياديهم على الطرف الأماميّ من تلك العصي.

في الطريق إلى قرية جبتانا، رفع لابانو، زعيم اللاجئين للكهوف صوته؛ حتى يعلو على أصوات الكلاب المصاحبة للجماعة وقال: "... نزلنا من فوق الأشجار ووجدنا أقدامَنا تقودنا إلى منطقة الكهوف التي كانت مأوى للقبيلة من قبل... ولما كان القلق والجوع والظمأ قد بلغ بنا كل مبلغ افترقنا للصيد، على أن نلتقي عند غدير الماء، وبعد الصيد، تجمعنا عند الغدير، وأكلنا وشربنا، واكتشفنا أننا جميعًا في سن متقاربة، إناثًا وذكورًا، مع وجود بعض الصبية والأطفال، فجعلنا كهفًا كبيرًا ملاذًا للصبية والأطفال. ولما كان عدد الإناث من البالغين كعدد الذكور، جعُلتْ لكلّ رجل امرأتُه، ويختاران كهفًا ليقيما فيه، وكانت لابانا من نصيبي... وأقمنا في منطقة الكهوف، ملجأ الجبتيين الأول، ولم نعد نفكر في معسكر جبتانا؛ خوفًا من المسوخ، وبالطبع كنّا نتصوّر أننا -وحدَنا- الناجون من مذبحة المسوخ... ورضينا بهذا الملاذ حيث الماء والطعام يكفي الجميع... ودار رع مئات المرات وأنجبنا كوفو وكوفا... كذلك عطفَتْ علينا أمُّنا الرّبةُ نوت وعرّفَتْنا سرّ نارِها".

وقصّت "لابانا" حوادثُ أخرى أثناء الطريق فقالت: "في ليلة المذبحة، ليلة المسوخ، أمسك بي مسخٌ من مسوخ الأوتان، ودفع بي بين إبطه وذراعه، وجرى ليمسك بفتاةٍ أخرى، فتعثّر في خندق السور وغصونه، وكِدْتُ أختنق من ضغط ذراعه على أنفي، ومن رائحته الخبيثة، فعَضَضْتُه بعنف فازداد تعثره، وسقط على

الأرض فأفلَتُّ منه، وتسلّلت بأقصى سرعة من بين أغصان السور وحِزم البردي؛ وهكذا نَجَوتُ، وظلَلْتُ أعدو غربًا، حتى وصلت إلى منطقة مفترق الطرق، وسمعت الصوت الإشارى للقبيلة "جبتو جبتو"، كما سمعت صوت "لابانو" من فوق الشجرة يأمرني، ويأمر شخصًا آخر يعدو خلفي، بأن نتسلق الشجر... ولجأنا إلى الشجر".

واستطرد لابانو: "بينما كنْتُ أنا ولابانا نُشَظّى الصخور للحصول على السكاكين الحجرّية، والأسنان الحادّة التي نربطها في الرماح وعَصيّ الصيد، حَمَلْتُ صخرة سوداء وألقيْتُ بها على نتوء صخري بارز، فلمحنا نار "نوت" ترعانا وتلقننا أسرارها.. وكرّرتُ إلقاء الأحجار على النتوءات الصخرية، فبرِقَتْ نار نوت من جديد واشتعلت الحشائش الجافة... وهكذا تعلمنا من وحي نوت العظيمة كيف نشعل النار... وأشعلنا النار عند مداخل الكهوف... وذات مرّة، وضعنا لحم الصيد على النار، واستمتعنا بطعم الشواء، وقدّمنا الشكر للربة نوت، وبدأنا نقدّم لها محرّقات على أحجار نارها؛ حتى تصل رائحة شواء المحرقة إلى أنف نوت في السماء (٦)"

لما سمع جبتو وجبتانا حكاية إشعال النار التي ذكرها لابانو نظرا لبعضهما، وقد زال عنهما شعور القلق من انطفاء نار نوت، التي تركاها موقدة في معسكر جبتانا منذ الصباح... فقد صاروا قادرين، منذ الآن، على إشعال نار نوت بالطريقة التي أوحت بها نوت إلى لابانو (٧).

وعاودت لابانا الحديث فقالت: ".... اعتادت كوفا وكوفو اللعب بالطين، يحضرانه من أطراف الغدير، وكثيرًا ما كانت تقلّد كوفا بالطين أوعية الشرب التي نتخدها من عُقَل البامبو، كما كانت تقلّد أوعية الصيد الصخرية المسطّحة... ذات مرة نَسَيتْ كوفا أوعيتها الطينية التي تجففها الشمس، فوق الحطب القريب من النار... ووصلت نار نوت إلى الحطب أمام الكهف... وفي الصباح وجدنا أوعية كوفا وقد تحولت إلى أوعية فخارية... وشعرنا بالامتنان لربة السماء نوت، وأشعل لابانو رأس جَدْي بري في النار؛ فصعدت رائحة الشواء إلى السماء، حيث تتنسمها أنف الربة العظيمة "نوت".

هوامش سِفْر "النار والعالم الآخر"

١- نار الإلهة نوت وحربها ضد المسوخ، صورة ميثولوجية وأخلاقية للآلهة باعتبار الآلهة كائنات خيِّرة تحارب الشر.

٢- الدخان يتصاعد إلى السماء، ليس لأن بعض الغازات أخف من الهواء، ولكن الدخان يتصاعد إلى السماء برهانًا للربة نوت على أن نيرانها على الأرض لا تزال موقدة لخدمة المصريين أبناء الآلهة... وكثيرًا ما تستغلّ المتون الدينية الظواهر الطبيعية لإثبات أمر ما، ومن أمثلة ذلك في التوراه أن قوس المطر (قوس قزح) كلما ظهر في السماء، فإنه يعلن أن "إلوهيم" لا يزال يذكّر الإسرائيليين بعهده معهم.

٣- المزامير والترانيم القديمة: ربما كانت أديان مصر القديمة، تجميعًا لعبادات أسطورية ميثولوجية أقدم؛ فانتقلت المزامير الأسطورية للمصريين، ومنهم انتقلت للعبريين.

٤- التشظية: في العصور الحجرية: كان الاعتماد على الصخور (الحجر) وكانت التشظية تعتمد على ضرب حجر بآخر، أو تسنينه وتحويره بالطرق والسحق وما شابه ذلك...

٥- "سهام رع الذهبية" كناية مصرية لغوية عن نور الشمس متأثرة بتقديس رع؛ وأحيانًا نرى هذه السهام الذهبية مصوَّرة في الخراطيش المصرية القديمة.

٦- المحرقة والأضاحي تصل رائحتها أو رائحة دمائها إلى الآلهة... وهذا الاعتقاد أثر من آثار القديم، ناشئ عن الرُّؤى الميثوليوجية القديمة التي كانت تسترضي الآلهة والمستبدين من زعماء القبائل.

٧- أوحت نوت إلى لابانو كيف يشعل النار. فالإنسان في طفولته العقلية -لم يكن يثق في ذاته وقدراته، وكان إذا اكتشف أمرًا ما، يردُّ ذلك إلى وحي الآلهة... ولهذا فالكلمات في كافة اللغات متقاربة حول: الوحي، الإلهام، الإبداع، الابتكار، الخلق، الرؤية عن بعد (التلباثية) والرؤيا (رؤيا المنام)...

سِفْرُ التَّثْنِيَة

الإصحاح الأول

سار الجميع شرقًا في اتجاه النيل وقرية جبتانا... وكان جبتو وجبتانا سعيدين بهذه التثنية، التي جمعت بينهما وبين مجموعة الجبتيين الفارين إلى الكهوف... وكذلك كان هؤلاء اللاجئون، سعداء بهذه التثنية بينهم وبين الاثنين اللذين بقيا على قيد الحياة في قرية جبتانا.

وتزداد الخضرة كثافة، كلما اتجه الجبتيون شرقًا، وتكثر المياة والغدران والاشجار والخمائل، وتترقرق الجداول بالمياه... ومن آن لآخر تطارد كلاب الأنوبيس القردة؛ فتفر القردة بحركاتها السريعة إلى الأشجار، مُحدِثةٍ ضجيجًا صاخبًا.

وتنزل الكلاب إلى أحد الغدران لتشرب، ولكنها تنبح بشدّة وتتّجه لمطاردة تمساح قد استلقى مستدفئًا بشمس آخر النهار... وتطارد مجموعة من الكلاب تمساحًا صغيرًا، وكأنها تحاول افتراسه، ولكنها لا تصر على ذلك؛ لأن التمساح يتوقف فاغرًا فاه. فيخيف الكلاب... ويزداد نباح الكلاب كلما اقتربت من قرية جبتانا، كما يزداد ضجيج القردة فوق الأشجار، وتتوارى التماسيح في الأدغال والمياه الضحلة.

وبتوجيه من جبتو، يتقدم الجميع بحذر، فيشربون من ماء غدير ضحل، مستخدمين أوعية البامبو والفخار... ويرمي جبتو وجبتانا ببعض الأحجار في الغدير، ولمّا تأكدوا أن لا تماسيح في الغدير، نزل جبتو وعزل جدولاً صغيرًا، بسد من الطين، وأخذ يمسك الأسماك ويلقي بها إلى الشاطئ... واشترك كوفا وكوفو وبقية الصبية والغلمان في جمع ذلك الصيد الغريب المبلل بالماء، وهم مندهشون من الحركات الغريبة لذلك الصيد.

بدأ الجميع في جمع الجذور والموز الأخضر... بينما جمع "لابانو" كمية من الحشيش الجاف والحطب والأغصان، وأمسك بحجر أسود، جعل يضرب به حجرًا آخر؛ فلمعت نار نوت، واشتعلت الحشائش الجافة فزادوها حطبًا، وأخذ الغلمان والبنات يضعون الأسماك فوق النار، ويراقبون حركاتها العنيفة حينما توضع في النار، ثم يستخرجون من النار ما طاب من هذا الصيد... وبدأت وجبة المساء... وشبعت الكلاب من بقايا السمك، وذهبت تبحث عن الماء، تاركة الفرصة للقردة، كي تأخذ

نصيبها من الطعام... وتذكّرت جبتانا الربة "نوت" العظيمة واهبة النار؛ فطردت القردة، ووجدت رأسين كبيرين لسمكتين من أسماك القرموط، فنظفتهما من ماء الجدول، ووضعتهما على النار التي كانت مشتعلة؛ فبدأت عظام السمك تشتعل ويرتفع دخانها إلى السماء حيث تقيم الربة نوت، ورفعت جبتانا يديها في اتجاه نوت مرددة مزمورها: "أيتها الأم السماوية والربة العظيمة نوت... يا مَنْ تبتلعين الشمس في آخر النهار وتلدينها من جديد مع مشرق كل صباح... يا مَنْ تتحولين حين تشائين إلى حتحور.. أيتها الراعية لأبنائك على الأرض، والأم الحنون لكل امرأة أثناء الولادة... نشكر لك أن هديتنا إلى سر نارك المقدسة طاردة المسوخ والتنانين ومنضجة الطعام الذي هو سر الحياة... لك أيتها الأم المجد في الأعالي، ونقدِّسك مع أبيك السماوي رع، سيد التاسوع المقدس... نرفع لك هذه التقدمة المتواضعة مُحَرَّقَة تصل رائحتها إلى أنفك في السماء اعترافًا بفضلك... هيلا... هيلا... هيلا".

حلّ الغروب، ونظر الجميع إلى القرص الذهبي لرع، حين يتلوّن بلون الدم، قبل ان تبتلعه "نوت" التي تتحوّل إلى "حتحور"، واختفى القرص الدامي، فأخذ جبتو يستحث الجميع على الإسراع في المسير، ليصلوا إلى المعسكر في الوقت المناسب؛ فهو لا يزال يخشى خطر المسوخ، كلما أقبل الليل، كما أنه لا يزال يخشى انطفاء نار نوت، بالرغم من علمه أن "نوت" كشفت للابانو طريقة إشعال النار.

الإصحاح الثاني

صارت القرية على مرمى حجر من الركب، وأخذت الكلاب تنبح. وبدأت تعوي بصوت يُؤْذِن بالخطر، وزاد صخب القردة فوق الشجر، وشعر جبتو ولابانو والجميع بالقلق، وزاد من القلق انتشار رائحة المسوخ الخبيثة... وفجأة توقف جبتو، وأخذ يجمع الأعواد والحشائش والأوراق الجافة، وفعل الجميع مثلما فعل جبتو، واستخدم جبتو بعض الأعواد الخضراء، وكوّر على أطرافها حشائش جافة، لتكون على هيئة مشاعل... وبإشارة من جبتو أعمل لابانو حجريه، واشتعلت النار في الحشائش الجافة، وأمسك كل فرد بمشعل أو مشعلين، وتقدموا إلى المعسكر بعد الغروب بقليل.

حين دخول المعسكر، اختلطَتْ أصوات الكلاب، مع أصوات القردة على الأشجار، بأصوات المسوخ وهي تفر مذعورة لمرأى نار نوت، ويعوي أحد الكلاب، ثم يصمت نهائيًا ويبدو أنه تجرأ فهاجم أحد المسوخ؛ فسحقه المسخ بأقدامه.

أسرع جبتو فأضرم النار في الخندق المحيط بالبيت القديم لجبتو مصرايم؛ فتأججت النار في الغصون الجافة وفي حزم البردي واللوتس والبوص، حتى أن الجميع رأوا أشباح مسوخ الأوتان والتنانين وأبي الهول وهي تفرّ مذعورة متوارية من النار بالأشجار.

سعد الجميع لهروب المسوخ، وبدأت رائحتها الكريهة تتلاشى تدريجيًا... وأخذت جبتانا تمدُّ النار بالغصون الجافة والخضراء، لتطمئن على أن النار سوف تظل مشتعلة حتى الصباح.

وضع كل رجل وامرأة من القادمين من منطقة الكهوف مشاعله في مكان من ساحة القرية، وأشعلوا نيرانهم، وحول النيران أخذوا حزمًا من البردي واللوتس والبوص لتكون فراشًا وغطاءً لهم من برد الليل، وكذلك فعل الصبية والغلمان.

وبدأت القرية تخلد إلى النوم، وفجأة، نبحت الكلاب من جديد، واضطربت القردة على الأشجار وزاد ضجيجها، وسمع الجميع صوتًا منكرًا صادرًا عن أحد

المسوخ، أعقبه أصوات صراع بين وحوش الليل، واتجهت الكلاب إلى مكان الصوت... ومن جديد أمر جبتو الجميع بإعداد المشاعل، واتجهوا إلى مصدر الصوت بحذر شديد..... حينما اتجهت المشاعل والنيران إلى مصدر الصوت، بدأت وحوش الليل تهرب من المكان... ووصل الجميع إلى مكان مكشوف قرب البحيرة، وما إن رأتهم التماسيح المتجمعة لنهش جثة أحد المسوخ حتى ولّت إلى الماء مذعورة... قرّبوا المشاعل من المسخ النازف، وأدركوا أن المسخ ربما لدغته أفعى فترنّح، وتجمّعت عليه وحوش الغابة وتماسيح الماء، ولأول مرة يرى الجبتيون مسخًا من مسوخ الأوتان، وجه بشري وجسد من أجساد القرود العملاقة، وأرجل كأرجل البقر.

شعر الجبتيون بالسعادة لمقتل المسخ عند أسوار جبتانا، وأحسوا بالتفاؤل لأن الإلهة نوت معهم، بل إن مجمع الآلهة التسعة معهم... وقرّر جبتو والجميع أن يقدِّموا جثة هذا المسخ قربانًا للتاسوع المقدس... رُبِطَت أقدام المسخ بالألياف والنباتات المتسلقة، واشترك الجميع في سحب بقايا الجثة الثقيلة حتى وصلوا بها إلى الخندق المحيط ببيت جبتو، حيث لا تزال النار مشتعلة، وسُحِبَت الجثة إلى النار، ووُضِع المزيد من الحطب والحزم الجافة، واشتعلت النار في الجثة بين رقص وجلبة الجبتيين، وتلاشت رائحة المسخ الكريهة، وحل محلها رائحة شواء المسخ الصاعدة قربانًا إلى التاسوع الإلهي في السماء... واقتربت الكلاب من النار ومن أهل القرية، منتظرة نصيبها من الشواء، وفجأة انفجرت جمجمة المسخ مُحْدِثة صوتًا عاليًا؛ فهربت الكلاب عند الأسوار، واتجه الجميع إلى مراقدهم.

الإصحاح الثالث

مع تقدّم شهر بؤونة وموسم الفيضان، ازدادت حرارة الجو، وأصبحت الرطوبة خانقة، وصار الضباب يخيّم على القرية وعلى الغابة كلها في الصباح... وارتفعت المياه في النيل، وفي الخمائل والغدران والجداول المتصلة بالنهر العظيم، ولولا أن المعسكر يقع فوق هضبة لوصلت إليه المياه.

ازدادت كلاب الأنوبيس اقترابًا من الجبتيين؛ فقد ألجأها الفيضان إلى الاحتماء بأسوار المعسكر، والتوالد تحت نباتات سور المعسكر، التي دبّت فيها الحياة لتسرُّب المياه إلى الأجزاء المطمورة في الخندق، وتحوّلت إلى أشجار بعضها من الجميز، وبعضها الآخر من الصفصاف والكافور والحور...

وتكاسلت الكلاب عن الصيد إلا قليلاً، وتعوّدت على بقايا الطعام التي تُقدَّم لها... بل ورضيت اقتسام البقايا مع القردة التي تعوَّدت -هي الأخرى- على اختطاف ما تصل إليه من بقايا الطعام.

في منتصف شهر أبيب وصلت مياه النيل إلى ذروتها حتى غطت خندق السور الخارجي، وأصبحت الحرارة خانقة... وفي الليل كثر البعوض وضايق الجميع، حتى أنّ النوم جافاهم، وصارت تسمع ضربات أكفهم على الأجزاء المكشوفة من أجسادهم، وبنصيحة من جبتو، طلى الجميع أجسادهم بالطين الأحمر الذي يرسله "حابي" مع المياه المتدفقة.

كَ ت جبتانا تشعر بآلام شديدة، أفهمتها لابانا أنها آلام اقتراب الولادة.. ظلّت جبتانا قلقة طوال الليل، ولزمت الخص ومعها لابانا، وعلى حين نام الجميع، رقد جبتو ولابانو على حزم البردي واللوتس القريبة من النار.

نبحت كلاب الأنوبيس بشدة، وبدا كأنها تطارد شيئًا ما، وجاوبتها القردة على الأشجار؛ فهب جبتو من النوم مذعورًا، وكذلك استيقظ لابانو، ووضعا مزيدًا من الحزم الجافة على النار التي تأججت وارتفعت ألسنتها في الهواء... وشم رائحة المسوخ الخبيثة، التي ما لبثت أن خفّت تدريجيًا... وشعر جبتو بقلق عميق، فقد أدرك أن المسوخ لا تزال تراقب المعسكر، أملاً في المزيد من النساء،

وشعر كذلك، في هذه اللحظة، بقيمة العدد؛ إذ كلما زاد عدد القبيلة كان ذلك أدعى إلى الشعور بالقوة والأمن؛ وأخذت جبتو ولابانو سِنة من النوم.

وصرخت جبتانا؛ فاستيقظ جبتو ولابانو، وساد الصمت لفترة شعر أثناءها جبتو ولابانا بالقلق... ثم صرخت مرّة ثانية، وبعد دقائق من الهدوء خرجت لابانا من الخص تعلن عن ميلاد طفلين: أشارت بإصبعها للمتحلِّقين حول النار قائلة: "كونا"... ثم أشارت مرة ثانية وقالت: "كونو".

شعر جبتو ولابانو وبقية الجبتيين المتحلِّقين حول النار بالسعادة لميلاد طفلين، وأحس جبتو بأن رع وحتحور ونوت وبقية التاسوع كانوا معه، إذ دعا الآلهة وابتهل إليها، أن يزداد عدد أهل جبتانا بحيث تستطيع أن تتصدّى لما تأتي به الأيام... وانتبه جميع المتحلِّقين حول النار، فإذا بجبتو قد رفع يديه إلى السماء، حيث يقيم الآلهة، ويردّد هذه الترنيمة أو "السورتا" [1] : "أيتها الربة حتحور... يا سيدة الجبلين... يا راعية الحوامل، وراعية انقسام الأنفس ساعة الميلاد، وراعية الأطفال الرّضّع... يا واهبة النسل الجديد الذي نتقوّى به نحن سلالة جبتو مصرايم... لك المجد في السماء، ولك الأبدية والخلود.. أيتها الربّة حتحور... أيتها الجميزة المثمرة والتينة الضخمة، وكما تملأ الجميزة والتّينة الأرض بثمارها، ندعوك أن تهبينا المزيد من النسل؛ حتى نصير كنجوم السماء، ورمل الصحراء في العدد، فنصبح أقوياء، لا يتغلب علينا أحد حتى المسوخ والتنانين وشياطين الظلام... هيلا... هيلا... هيلا".

دخلت لابانا مع جبتانا في الخص، وخيّم الهدوء على قرية جبتانا حتى أطل رع بسهامه الذهبية.

الإصحاح الرابع

مع نهاية شهر مسرى بدأت مياه النيل في الانحسار. ذلك أن حابي إله النيل والمياه، الذي يقيم في جنات عدن، كان في نهاية مدة استخدامه للشادوف [٢] المقدس الذي صنعه له الإله "بتاح"، والذي نصباه عند البوابة الذهبية لمنبع النيل. لقد استمر حابي يعمل بشادوفه المقدس طوال أشهر الفيضان الثلاثة، بؤونة وأبيب ومسرى، وآن له أن يرتاح، استعدادًا للعمل بالشادوف السماوي في العام القادم، لنقل المياه من جنات عدن إلى بوّابة النيل الذهبيّة... بعد توقف الفيضان تخلّفت بحيرات وبرك ومستنقعات وأدغال مليئة بالطيور والأسماك، وبثمار أشجار الموز والنخيل والعنب والرمان... كذلك جفت أراضي الغابات وامتلأت خضرة، كما امتلأت بأعداد من أسراب البقر والوعول والغزلان والخنازير وكافة فصائل الحيوان.

لا يزال جبتو يصاب بالحيرة، إذا ما تذكّر "جبتو مصرايم"، فرآى صورته بعين خياله، أو رآها فيما يرى النائم، في حين أنه يعلم أن جبتو مصرايم الجسد، لا تزال جثته راقدةً في خندق السور... واستقر قلب جبتو على ضرورة وجود عالم آخر أثيريّ، غير هذا العالم الترابي، يصل إليه الجميع، بعد الموت، بأرواحهم، ووصل جبتو إلى أن للجسد صورة نتخيّلها ونراها في الأحلام وهي قرينة الجسد وأخت له، وسماها "كا"، كما أن في الإنسان، لأنه ابن الآلهة، روحًا أثيرية تصعد عند الآلهة، حال موته، وسماها "با". [٣]

نُظِّمت الأخصاص في قرية جبتانا، لكل أسرة خصها، وللأطفال والغلمان الذين فقدوا أمهاتهم عدة أخصاص متجاورة، كذلك نُظِّمت نار القرية، وهي قريبة من خص جبتو وجبتانا، حفروا للنار خندقًا صغيرًا وحدّدوه بالأحجار، وجعلوا الطرف الجنوبي من النار بمثابة مذبح، تحرق عليه القرابين لتاسوع الآلهة... وصارت لهذه النار قداسة عند أهل جبتانا، حتى أنهم كانوا يصرّون على استمرار اشتعالها، ليس فقط تخوفًا من المسوخ، بل تقديسًا للربّة "نوت" وتاسوع الآلهة.

ومع تزايد عدد كلاب الانوبيس في القرية، قلّ خطر التماسيح والسباع، حيث كانت كافة فصائل الحيوان تخشى بأس هذه الكلاب الناجحة، والمتعاونة في مطاردة الفرائس والحيوانات.

عادت جبتانا ولابانا ومجموعة من البنات من رحلة صيد، ومعهنّ كمية من السمك وعدّة إوزات، بالإضافة إلى عدد من البيض جمعنه في السلال وبعض الموز والثمار...

وأطمأنت جبتانا على طفليها اللذين تركتهما في رعاية كوفا ابنة لابانا... وجدت جبتانا ولابانا مع كوفا جروين صغيرين من جراء القطط، يلتصقان بها كلّما نبحت الكلاب... وضحكتا حين رأتا الجروين يلتصقان بكوفا، ويتركان بقايا السمك التي وضعتها لهما، حين سمعا صياح جبتو ولابانو وبعض الفتيان، وقد دخلوا المعسكر ومعهم وعل كبير، يحاولون دفعه في اتجاه طرف البحيرة لذبحه وتنظيف لحمه، بينما الكلاب تنبح من حولهم، والقردة على الأشجار تحدث ضجتها المعهودة.

التأم شمل القرية، وابتهج الجميع واشتركوا في إعداد الطعام... وأكل الجميع وشربوا، وأكلت كلاب الأنوبيس حتى توقفت عن النباح وعن العراك وراحت تبحث عن الماء، فنزلت القردة، تبحث عن نصيبها من البقايا.

ولم ينس جبتو "رع" رب الأرباب، كما لم ينس "نوت" سيدة السماء وبقية تاسوع الآلهة، فجمع رءوس الأسماك والوزات ورأس الوعل وأرجله وأحشاءه، وألقى بها في الجزء المخصص لأضحيات الآلهة في طرف النار؛ فاحترقت الأضحيات وصعدت رائحتها ودخانها إلى السماء حيث تقيم الآلهة.

شعر جبتو بتلك الحالة الروحية التي تنتابه، حين يحدّثه قلبه بأن ما يفكّر فيه يأتيه من وحي الآلهة، فبدأ يحدّث نفسه قائلاً: "لماذا يتصاعد دخان الأضاحي إلى السماء؟! إنه يصعد إلى حيث تقيم الآلهة، فيكون نسمة رضا، تحس بها أنوف التاسوع المقدس... إن الآلهة تحبّ الروائح الجميلة، كروائح البخور والخشب العطري، كما تحبّ رائحة الأضاحي التي تُحْرَق من أجلها على مذابح النار... لا بد وأن تكون الآلهة أثيرية وهوائية؛ ولهذا فهي تقيم في الأعالي... إن "جبتو مصرايم" الذي أراه بنور قلبي، والذي أراه أحيانًا في المنام، لا بد وأن يكون له وجود آخر باقٍ

سرمدي كالآلهة.. إن الجسد يفنى لأنه من تراب الأرض وطعامها. أما الأخت أو القرين "كا". وكذلك الروح الإلهية "با" فلا يمكن أن تفنى؛ لأن كل شيء ذا صلة بعالم الآلهة لا بد وأن يكون سرمديًا وخالدًا...".

الإصحاح الخامس

جلست كوفا ومجموعة من البنات والأطفال يداعبون القطتين الصغيرتين، ولاذت القطتان بكوفا عندما تحرّش بهما أحد جراء الكلاب... واستشعرت كوفا الخطر على قطتيها؛ فقامت على الفور بإعداد خص صغير للقطتين، مستخدمة بعض الأغصان الصغيرة وشيئًا من البردي واللوتس... وتركت كوفا الخص الذي لا يتجاوز ركبتيها، وأخذت تصنع من طمي النيل بعض الأواني... وطرأت على رأسها الصغير، فكرة طلاء خُصّ الجروين بالطمي... ولمّا جفّ الطمي أعجب الجميع بمنظر الخص المطلي بطمي النيل الأحمر.

وبدأ الرجال والنساء والفتيان والفتيات، ومعهم الأطفال، في طلاء الأخصاص بالطمي. وكانوا كلّما وجدوا فتحات كبيرة في الأخصاص، يَسُدّونها بالحشائش وأغصان الشجر الرفيعة والأوراق قبل الطلاء بالطمي، وأحيانًا كانوا يخلطون الطمي بالحشيش قبل الطلاء.

كان جبتو ولابانو وبعض الرجال في رحلة صيد، فلمّا عادوا، ربطوا فرائسهم بحبال الليف، وأخذوا يمعنون النظر في الأخصاص المطلية بطمي النيل، وأعجبتهم الأخصاص بشكلها الجديد المتناسق، وأمر جبتو الجميع بطلاء الأخصاص من داخل ومن خارج... وتذكّر جبتو الكهوف التي عاش فيها طفلاً، وفتحاتها التي كانت تغلق "بالدلتا" أو الأبواب (٤) والتي كانت عبارة عن حجر مثلث رقيق يُسدّ به باب الكهف، فأمر جبتو الجميع باستكمال الحائط الرابع من كل خص وترك فتحة على شكل مثلث تكون بمثابة باب للخص، كما أمرهم بصنع أغطية لهذه الفتحات، كل منها على شكل مثلث أو دلتا؛ لسد تلك الفتحات عند اللزوم.. وصار للجبتيين أخصاص طينية، ذات أبواب على شكل الدلتا أو المثلث.

حين أقترب المساء، ذُبِحَت الفرائس، وتمّ شواؤها، ووُضِعَت اللحوم في الأواني الفخارية والحجرية، كما قُدِّم البيض المشوي والموز والجذور الدرنية، وأكل الجميع، وشبعت الكلاب من البقايا؛ فتركت للقردة نصيبها.

ولمّا ابتلعت ربّة السماء "نوت" قرص الشمس، قام جبتو فوضع رءوس الفرائس في النار؛ فتصاعد دخانها إلى السماء، يحمل رائحة الشواء، تقدمة مساء لتاسوع الآلهة في السماء.

ومع اعتدال الجو في شهر تحوت، وضعت جبتانا توأمين آخرين هما "شاسو" و"شاسا". وابتهج الجميع بذلك، خصوصًا جبتو الذي صار كاهن القرية وزعيمها، والذي كان مشغولاً بموضوع عدد أفراد القبيلة، وصلة العدد الكبير بالأمن؛ إذ بالرغم من "التثنية" التي حدثت بين جبتو وجبتانا، ولابانو ولابانا وبقية الجبتيين الفارين إلى منطقة الكهوف، فإن العدد لا يزال قليلاً. على الأقل من وجهة نظر جبتو، الذي تشغله قضية "العدد" وأمن القبيلة.. ومع هذا سُمِعَت جبتانا، وهي تُرْضِع طفليها، تردِّد هذه الترنيمة: "أيتها الإلهة الأم نوت، يا سيدة السماء، يا واهبة النار والدفء، ويا حامية أبنائك من المسوخ والتنانين، ويا راعية الوالدات ساعة المخاض، ويا مبتلعة رع، ومعيدته مع كل صباح، ويا مُكَثِّرة نسل ابنك جبتو مصرايم، ليكون كنجوم السماء ورمل الصحراء.. لك منا الشكر... أيتها الربة حتحور "يا راعية كل أم ساعة الميلاد، ويا مُخَفِّفة آلام من تلدغهم الحية والعقرب، ويا مزيلة الأوجاع التي ترسلها الآلهة والمردة والشياطين، ويا راعية كل مولود يخرج من الرحم ليتنسّم هواءك ليعيش، يا معلمة الحب والحنان. سوف نهب لك أيتها الأم. كلّ الأخشاب العطرية التي نجدها في الغابة، فنحرقها على مذبحك المقدس. لتصل أرواحها إليك في السماء... هيلا... هيلا... هيلا".

كان لابانو قد أحضر أغصانًا من شجرة الكافور المقدسة، فلمّا سمع المزمور [٥] الذي ردّدته جبتانا؛ شعر بالرضا والخضوع للآلهة، وأسرع فوضع أغصان الكافور في النار؛ فانتشرت رائحة الكافور، وصعد دخانه إلى السماء... سعد الجميع وتفاءلوا، إذ شعروا أن الآلهة معهم، وشعر لابانو بأن السماء كانت معه، حين أرادت هذه "التثنية" بين المجموعتين الجبتيتين حتى يستمر نسل "جبتو مصرايم"، الذي هو من نسل الآلهة.

هوامش سِفْر "التَثْنِية"

١- سورتا: هي كلمة مصرية وسامية بمعنى "النص"، ولعلها مخصوصة لنصوص الترانيم المقدسة، وربما كانت كلمة سورة (من سور القرآن الكريم) ذات صلة بالسورتا ـ راجع: لويس عوض: مقدمة في فقة اللغة العربية.

٢- شادوف: كلمة مصرية قديمة، علم على أول آلة لنزح ونقل المياه، تعتمد على فكرة الروافع، وهناك أسطورة قديمة عن شادوف "بتاح" الذي أعطاه لحابي إله النيل والمياه؛ لينقل به المياه من جنات عدن إلى بوابة النيل الذهبية... وهناك مَنْ ينسب الشادوف إلى مبتكرات أوزوريس (راجع منقولات بلوتارخ. برديات جاردنر. بردية تورينو).

٣- وصل المصريون، عند أواخر ما قبل التاريخ،وأوائل التاريخ، إلى وجود عالم آخر تعيش فيه الروح "با" معتمدة على التعرُّف على قرين الجسد "كا".

٤- كلمة "دلتا" كلمة مصرية قديمة، تُطْلَق على الحرف الرابع المصري: [ألفا -بيتا - جيميل (جاما اليونانية) دلتا] كما تُطْلَق على باب الخُصّ الذي على هيئة المثلث، وتُطْلَق أيضًا على المثلث كشكل هندسي.

٥- مزمور: كلمة مصرية وسامية، تُطْلَق على الترنيمة أو السورتا المقدّسة... وحين اكتشف الإنسان اللغة كوسيلة اتصال، وأداة يعمل بها العقل، أعجب الإنسان بقدرته اللغوية واعتبرها هبة إلهية. (راجع: لويس عوض).

سِفْر "الاستئناس والتدجين"

الإصحاح الأول

استقرّ الحال بالعائلة المقدسة الجبتية، التي هي من نسل الآلهة، في قرية جبتانا... ودار القرص المجنح للشمس حاملاً الإله الأعظم "رع" عدّة مئات من المرات، وتوالى التغيّر على الوجوه الفضية لخنصو إله القمر مرات ومرات... وأعمل حابي، إله النيل والمياه، شادوفه السماوي، فأجرى النيل بالمياه والطمي عدة فيضانات؛ فزدادت الخضرة، وكثافة الأشجار والأدغال، المحيطة بجبتانا، وامتلأت الأرجاء بالفرائس وحيوانات الصيد والزواحف والطيور والوحوش وأفراس النهر والتماسيح...

في يوم من أيام بؤونة، حيث الحرارة والرطوبة، عاد جبتو ولابانو وكوفو ومجموعة من الشباب والرجال، من رحلة الصيد التي تبدأ قبل مشرق رع، محمَّلين بكثير من الخيرات والفرائس، واستقبلت جبتانا ولابانا وكوفا وبعض الفتيات، العائدين الذين طرحوا ما يحملون من ثمار وصيد قريبًا من خص جبتو عند نار نوت المقدسة: سلال مُلِئت بالموز والعنب وبعض الجذور، وسلتان بهما سمك، وعدَّة أوزات وبطات رُبِطت بالحبال من أرجلها، وربط جبتو بقرة في أصل شجرة مجاورة، وأنزل لابانو من على كاهله وليد البقرة الصغير.

أُشْعِلت النيران، وأُعِدّ طعام الصباح، وأكل الجميع وشربوا، وأُلْقِيت البقايا للكلاب عند الأسوار، وتعاركت القردة مع الكلاب لاختطاف نصيبها من البقايا، ولم تنس كوفا قطتيها.

قُدِّمت الرءوس للآلهة، ووُضِعَتْ على النار؛ حتى تتنسّم الآلهة رائحة الأضاحي في السماء... ثم وضع لابانو غصونًا من حشب الكافور على النار، فاحترقت، وشمَّ الجميع الرائحة الطيبة للكافور، التي تصاعدت إلى حيث التاسوع السماوي.

بعد وجبة الصباح، انشغل الرجال والشباب وبعض الفتيات والأطفال، بإعداد حظيرة لقرية جبتانا، وكما قاد جبتو ترضية الآلهة بإصعاد رائحة المحرَّقات، كذلك قاد الجميع في إقامة حظيرة جبتانا.

اختاروا الركن الجنوب الشرقي من المعسكر لإقامة الحظيرة، وأغلقوا هذا الركن بضلع يكمّل مثلث الحظيرة، حفروا هذا الضلع ووضعوا فيه الأغصان وحزم اللوتس والبردي، وتركوا دلتا أو بابًا للدخول والخروج.. وُضِعَت البقرة ووليدها في الحظيرة وأُغْلِقَت الدلتا، وأُلْقِي للبقرة كمية من الأغصان المورقة والأعشاب الخضراء.

تكوّنت خلف الأسوار داخل القرية بركة غمرتها مياه الفيضان التي تسرّبت إلى هذا المكان المنخفض، فذهب الرجال والشبان والأطفال للاستحمام في مياه هذه البركة الآمنة التي لا تصل إليها التماسيح... وخرج الرجال والشبان من الماء واستلقوا تحت ظلال الأشجار، بينما ظل الأطفال يعبثون في هذه البركة الصغيرة.

انتبه الجميع، على صراخ الصغار، ونباح الكلاب، وضجّة القردة على الأشجار، وبدا الصغار: كوفو وكوفا وكونو وكونا وكأنّهم يطاردون شيئًا في الماء، ونظر الكبار إلى حيث ينظر الصغار؛ فوجدوا طائرًا ضخمًا من نوع الرُّخ [1] وبين مخالبه طفل صغير، ونظرت جبتانا، فأدركت ما حدث وانفجرت باكية: فقد اختطف ذلك الوحش الطائر صغيرها "شاسو" الذي كان يحبو بجوار الخص.. ساد الوجوم... ولفّ القريةُ كلّها صمتٌ كئيب... وصمتت الكلاب عند الأسوار، كما صمتت القردةُ فوق الأشجار.

الإصحاح الثاني

أصدر جبتو أوامره بأن يحرس الصبيان والغلمان الأطفال الصغار حين لعبهم خارج الأخصاص. كذلك ألزم الجميع بحمل الحراب ذات الرءوس الحجرية، حتى وهم في داخل أسوار جبتانا... وتحسبًا لهذه الوحوش الطائرة، وزيادة في الأمان، أشار جبتو بغرس الأغصان في ساحة القرية، وقريبًا من الأخصاص وأحجار النيران؛ اشترك الجميع في حَفْر الحُفَر، ووضعوا الأغصان قائمة في تلك الحُفَر، ثم أُعِيْدَ التراب. فبدت ساحة القرية كأنها حديقة متراصّة الأشجار، وأصبح من الصعب على الوحوش الطائرة أن تقوم بحركة الانقضاض، فتخطف الصغار أو جراء الكلاب أو لحوم الفرائس.

قبل الغروب، أخرج جبتو البقرة الرضيعة من الحظيرة وذبحها عند أطراف البحيرة وجهزّها للشواء.. وتحلّق الجميع -واجمين -حول الجذور والموز والشواء... وانفض العشاء سريعًا... ورفضت جبتانا العشاء، واستمرت في النحيب على صغيرها شاسو الذي اختطفه الرُّخ.

في هدأة الليل، وقف لابانو يضع أعوادًا جافة وأغصانًا على النار؛ لتزداد اشتعالاً، ولم تكن النار في حاجة إلى المزيد، ولكنه كان يشعر بالقلق والأرق، فأراد أن يشغل نفسه بشيء ما... وكان جبتو في حالة أسوأ من الأرق؛ فقد فقد صغيره شاسو، فضلاً عن أن بكاء جبتانا ونحيبها قد زاد من شعوره بالضيق والقلق والأرق؛ ومما زاد الأمر سوءًا أن البقرة الأم، بعد أن ذُبح وليدها، ملأت أرجاء القرية بخوارها ونعيقها... وتفقّد جبتو ولابانو أنحاء المعسكر المختلفة، بما في ذلك الحظيرة، وشعرت بهما الكلاب والقردة فزاد النباح والضجيج... واستلقى جبتو ولابانو بجوار النار، وظلا صامتين حتى غلبهما النوم في الهزيع الأخير من الليل.

استيقظ الجميع على خوار محموم للبقرة، واتجه بعض الغلمان إلى الحظيرة، وألقوا بالمزيد من الأغصان المورقة أمام البقرة، ولكنها عافت الأوراق الخضراء واستمرت في نعيقها. قدّموا لها الماء في وعاء صخري كبير، فشربت. ثم عاودت النعيق.

مع فجر هذا اليوم، بدأت جبتانا تعاني من آلام في ثدييها؛ ذلك لأن شاسا الصغيرة زهدت في الرضاعة، حين اختفى منافسها "شاسو". وفضّلت السمك المشوي والموز... واحتقن ثديا جبتانا، وزادت آلامها مع مشرق الشمس. فأخذت تعتصر ثدييها من شدة الألم؛ فسال ذلك السائل الأبيض. وشعرت جبتانا بالراحة. فاستمرت في اعتصار ثدييها حتى زالت آلامها.

سمعت جبتانا نعيق البقرة العنيف. فاتجهت إلى الحظيرة. حيث وجدت لابانو وجبتو يستعدان لإخراج البقرة لذبحها تخلصًا من نعيقها.. نظرت جبتانا إلى ضرع البقرة فوجدته منتفخًا وملتهبًا. فتذكرت حالتها وأدركت أن حال البقرة من حالها. فدخلت إلى الحظيرة وربّتت على ضرع البقرة التي استسلمت لها. فأخذت تعتصر أخلاف البقرة فسال ذلك السائل الأبيض. وأشارت إلى كونا التي كانت تحمل وعاءها الفخاري. فملأت للطفلة وعاءها باللبن. وملأت أوعية أخرى. واستطاب الجميع طعم ذلك السائل... وأرادت كوفا المزيد فصاحت: "لابا". فحلبت لها لابانا المزيد من ذلك السائل الشهي. الذي أطلقوا عليه اسم "لابانا" [٢] وهدأت البقرة. وأخذت تأكل الأعشاب والأوراق الخضراء... وفي المساء حين نعقت البقرة مرة ثانية. تم حلبُها. وامتلأت أوعية فخارية باللبن.

في اليوم التالي. كان الصيد قليلاً. وأراد جبتو ولابانو ذبح البقرة الأم. فاعترضت لابانا وجبتانا. وأمرتا الفتيات والغلمان بإحضار المزيد من البيض والموز لوجبة الضّحى... وصار للقرية ولأهل جبتانا حظيرة. وكلّما اصطادوا بقرة ذات ولدٍ. فإنهم يأكلون الصغير. ويتركون البقرة الكبيرة للحصول على اللبن.

(..أُثبت -أنا مانيتون السمنودي- سورتا أو ترنيمة اللبن التي نسخها بعض تلاميذي عن متون الأهرام. وتحكي هذه المتون عن ترنيمة. في عصر ما قبل إيزيس وأوزوريس. تُسَمَّى ترنيمة "اللبن والبقرة حتحور"... تقول الترنيمة: "أيتها الأم البقرة السماوية حتحور. يا خالقة السائل الأبيض. سائل الحياة الثاني [٣] تعطيه الأم لأبنائها. وتعطيه البقرة لوليدها. وتعطيه أيضًا لأبناء جبتو مصرايم. أيتها الأم البقرة حتحور. لك المجد في السماء. فأنت تستحقين مكانك في قدس أقداس التاسوع. فأنت واهبة السائل (الأبيض) مثلما كان رع وبقية التاسوع مسئولين عن سائل الحياة... هيلا.. هيلا").

بعد عدّة أشهر، دبّت الحياة في أغصان النباتات التي زُرِعَت في ساحة القرية، وظهرت البراعم، بل وظهرت بعض ثمار الجميز.

(... وأسجّل -أنا مانيتون السمنودي- هذه الترنيمة أو السورتا القديمة، وهي بعنوان "نرفع الشكر لجب الذي مكّننا من استئناس النبات ونقله في أي مكان". تقول السورتا: "أيها الإله العظيم جب، يا ابن "تشو" و"تِفْنُوت"، اللذين خلقهما أتوم رع بكلمة الخلق وسِرّ التكوين، يا توأم "نوت" سيدة السماء، نسجد لك، ونمجّدك لأنك مددت يديك للجبتيين، أبناء جبتو مصرايم، والذين هم من نسل الآلهة، وعرّفتنا كيف نتحكّم في الشجر الأخضر، وننقله ونزرعه في أي مكان من جسدك، الذي هو الأرض"..) (٤).

الإصحاح الثالث

مرّت أيام الحر القائظ من بؤونة وأبيب ومسرى وأيام النسيء، ومرّت -كذلك شهور بابة وهاتور من العام الجديد؛ وفي شهر كيهك، تمّ توسيع ثانٍ للحظيرة، ووُضِع فيها المزيد من البقر والنعاج وإناث الأيائل...

في يوم بارد من أيام طوبة، وقبل الغروب بقليل، أُعِدَّ الشواء والطعام قريبًا من نار القرية، وانتظر الجميع عودة جبتو ولاباتو ومعهما مجموعة من الفتيان من الصيد ليتحلّق الجميع حول الطعام... وأقبل الصيادون، بزعامة جبتو، يقودون ثورًا ضخمًا يسيطرون عليه بصعوبة، وبعد مجهودٍ استطاعوا الزجّ به في الحظيرة... ثم تناول الجميع العشاء.

بعد العشاء، وقبل أن يتكاثف الظلام، اتجه جبتو إلى الحظيرة، ليضع مزيدًا من الأغصان المورقة والأعشاب للحيوانات المستأنسة، فرأى الثور الجديد وهو يعلو البقرة الأولى ويطرُقُها؛ فشعر بالإعجاب بفحولة الثور الجديد... وتبادر إلى ذهن جبتو أن يُسمِّي البقرة الأولى؛ فسمّاها باسم الربة "حتحور"؛ وسمّى الثور باسم "أبيس"؛ وأبيس اسم كانت تطلقه قبيلة جبتو مصرايم، على كلِّ ذكرٍ فاتح رحمٍ يؤدي إلى نسل جديد، يستوي في ذلك ذكور الحيوان الإنساني أو الحيوانات الأخرى.. أمّا حتحور فهي ربة الأنوثة والخصوبة، واهبة الحياة وراعية الوالدة والمولود.

حينما هبط أبيس من فوق حتحور، أخذ جبتو يقارن بين العضو التناسلي المختون لأبيس، والعضو التناسلي الأغلف غير المختون لذكور الإنسان، وانشغل جبتو بهذه المقارنة، فهو يرى ضخامة قطعان البقر التي تجوب وادي النيل والبراري، ويُعجب بأعدادها الوفيرة، بالرغم من كثرة ما يُفترس منها، ووصل جبتو بتفكيره إلى أن الآلهة ختنت ذكور الحيوان، كما أن الآلهة توحي إليه الآن، بفكرة ختان الذكور من بني الإنسان.

استيقظ جبتو، زعيم قرية جبتانا وكاهنها، ذات صباح من شهر أمشير على صراخ متقطّع، فاستفسر فجاءه الجواب، بعد انقطاع الصراخ، أن الفتاة "باتا" صاحبة الفتى العنيف "جبجا" قد وضعت مولودًا ذكرًا؛ فاستبشر جبتو.

واحتفلوا بعد وجبة الضّحى، بإشعال المزيد من النار، وتقديم المزيد من الأضحيات لتاسوع الآلهة، وأعلن جبتو في نهاية الاحتفال أن الربة حتحور جاءته في المنام، ونقلت إليه رغبة التاسوع المقدس الذي يوصي بضرورة ختان الجبتيين؛ لأنهم من نسل الآلهة، وبما أن الآلهة أطهار ومقدسون، فإنهم مختونون، وهكذا فكل مولودٍ ذكرٍ من نسل جبتو مصرايم، فلا بد وأن يُختَن في اليوم الثامن من ميلاده.

ذات يوم من برمهات، أصرَّ الفتى العنيف "جبجا" أن يقود صيادي جبتانا قبل الغروب لاصطياد المزيد من البقر، لاستئناس الأمهات من أجل اللبن، وكان النيل ضحلاً في ذلك الوقت، فتقدَّموا شمالاً حتى اقتربوا من المنطقة المحرَّمة، وهي منطقة التلال البيضاء، التي يُقَال إنها موطن الشياطين والمسوخ... ولمح الصيادون خنزيرة وصغارها يعبثون بطين بركة جافة... فأمر جبجا الصيادين بالتخفي والكمون خلف الأدغال، حتى تطمئن الخنزيرة وصغارها، فيهجمون على حين غرة منها.. تخفَّوا وكمنوا، واستمروا دقائق حتى غابت الشمس، وفجأة شموا رائحة كريهة... وتقدَّم صبي صغير -دون إذن من جبجا -ليمسك بأحد صغار الخنازير فإذا بمسخ صغير من مسوخ أبي الهول، بوجهه الإنساني، وجسده الحيواني يهجم على الصبي، وعلى الفور أصدر جبجا الأمر بالهجوم؛ فأعمل الجبتيون رماحهم في جسد أبي الهول، وخلَّصوا الصبي من براثنه، وأثخنوا المسخ بالجراح... ثم أصدر جبجا الأمر بالعدو في اتجاه جبتانا؛ حيث إن صراخ المسخ، قد يستدعي المسوخ والشياطين.

وصل الصيادون إلى جبتانا، والتقطوا أنفاسهم قرب نار القرية التي أمر جبتو بأن تزوَّد بحزم البردي واللوتس... وتوتَّر الجميع، ونبحت الكلاب وضجَّت القردة على الأشجار؛ فقد امتلأ الجو بالرائحة الخبيثة للمسوخ... وبعد دقائق من تأجُّج النيران، بدأت تلك الرائحة الخبيثة تخبو تدريجيًا.. وعاود جبتو شعوره القديم بالخوف على "جبتانا" قرية الجبتيين من المسوخ والتنانين وشياطين الظلام.

الإصحاح الرابع

استيقظ جبتو من نومه متأخرًا في صبيحة يوم من أيام برمهات، ولمّا لم يجد أحدًا في الخص، انحنى وخرج من دلتا الخص التي تُرِكَت مفتوحة؛ فوجد رع قد أشرق ببهائه على الكون، وكانت سهام أشعته الذهبية تنفذ من بين أشجار القرية، فتترك على الأرض بساطًا منسوجًا من النور والظل... لم يجد جبتو في ساحة القرية إلا الغلمان والصبية والأطفال؛ إذ إن الجميع ذهبوا للصيد أو التقاط الثمار... ولمّا أرسل رع بعض سهامه الذهبية إلى عينيّ جبتو، تذكّر "جبتو مصرايم" ابن الآلهة، كما تذكّر تلك السورتا أو الترنيمة التي حفظها عن "جبتو مصرايم" والتي يُحيي بها الإله رع كقداس صباحي: "أيها الرب الإله رع... يا صاحب المجد والسلطان في قدس أقداسك في السماء... أنت يا وارث أتوم منذ الأزل... أفض علينا بدفئك ونورك.. لك المجد، فأنت واهب الحياة لكل ما يتحرّك، ولكل ما يتنسّم نسمة هواء... أنت واهب النار من خلال ابنتك نوت... وواهب اللبن للرضيع من خلال ابنتك حتحور... وواهب ماء الحياة في النهر العظيم من خلال ابنك حابي، الذي لا يزال يعمل بشادوفه المقدّس كل عام، لنقل المياه الحمراء من جنات الآلهة في السماء، إلى جنات أبناء الآلهة في الأرضين (٥) أيها الإله الذي سوّى نفسه بنفسه، والذي خلق كل الآلهة وكل الأشياء، إنها جميعًا تحيا عندما تصلها السهام الذهبية لنورك... وحينما تغيب في ظلمة الغرب فالجميع ينامون، والنوم نصف الموت... إيه يا رع: بارِكْ قريتنا ونسلك المقدّس، نسل جبتو مصرايم، واجعلنا في الكثرة كنجوم السماء ورمل الصحراء، واحمنا من المسوخ والتنانين وشياطين الظلام...".

ثم اتجه جبتو بخطوه الوئيد إلى قبر "جبتو مصرايم" الذي تحرسه ليل نهار أعداد غفيرة من الكلاب، ولمّا اقترب من القبر، فهمت الكلاب أنه يريد أن يحيي صاحب القبر؛ فتخلّت عن المكان، على حين بدأ جبتو وكأنه يخاطب القبر ويقول: "كيف يرقد ساكنًا هذا الأب العظيم، سليل الآلهة، وملك الجبتيين؟ إن المصير الأزليّ قد حلّ به... تموت أجيال من الناس جيلاً بعد جيل، منذ زمن الإله رع... إن رع نفسه يشرق ويحيا في الصباح، ويغرب ليستريح في "منو" (٦) إن الرجال يتصلون بالنّساء، ويأتي صباح آخر وتلد النساء، وينتشر الأطفال في كل مكان.. ولكن لا بد من أن يأتي يوم الوصول إلى البر (٧) في الأرض التي تحبُّ الصمت..".

وتمرُّ عدة أشهر، ومع فجر أحد أيام أبيب، يخرج من القرية جبتو ولابانو وكونو ومجموعة من الفتيان، مزمعين السير إلى الجنوب الغربي، حيث منطقة الحجارة السوداء الصلبة؛ للحصول على السكاكين الحجرية ورءوس الرماح والسهام وعصي الصيد... ولم يلبث الضباب أن انقشع، وظهر رع جليًا في الأفق الشرقي، وصار الجميع يتصببون عرقًا، كلـّما اتجهوا غربًا وكلـّما ارتفعت الشمس في كبد السماء.

وصلوا إلى المحجر، وجلسوا يستريحون تحت أكمة تُظَلِّلها نباتات الصبار المتشابكة وصفٌ من نباتات التين الشوكي... تذكـَّر جبتو حين هربت القبيلة كلُّها إلى هذا المكان، بقيادة ابن الآلهة "جبتو مصرايم"؛ تفاديًا للصراع مع قبيلة من المشوش الذين ليسوا من نسل الآلهة...

جمع الفتيان كمية من التين الشوكي، وقاموا بإزالة قشورها، كما جمعوا الكثير من ثمار الفاقوس والشمام والبطيخ... وأكل الجبتيون وشربوا... ثم أخذوا يشظـّون الصخور، ليحصلوا على ما يريدون من الشظايا والقطع الحادة، التي تصلح للرماح وعصي الصيد أو كسكاكين صخرية...

حين همُّوا بالرحيل، رأوا سربًا من الوعول يقترب من نبع متدفـّق بين الصخور، فطاردوا سرب الوعول غربًا، ولمـَّا تجاوزوا المنطقة الصخرية، إلى البراري الرملية غربًا، فوجئوا بواحة كثيفة الخضرة، يتوسـَّطها مستنقع مائي عميق... وأمعنت الوعول في العدو غربًا، فتركوا الوعول، وجاسوا خلال تلك الواحة، بدافع الفضول، ولشعور جبتو بوجود رائحة البشر... وعند خميلة ملتفـّة من نبات البامبو والخيزران، واجهتهم مجموعة من الصبية والأطفال، ما لبثوا أن لاذوا بالفرار، وهم يصيحون بنداء الاستغاثة والتعارف "جبتو... جبتو" فارتبك وفد قرية جبتانا وتحيـّروا ولزموا أماكنهم، فأقبلت مجموعة من الرجال والفتيان، مسلحة بالرماح، وجاوبوا على نداء الاستغاثة صائحين: "جبتو.. جبتو"؛ عندئذٍ صاح جبتو بأعلى صوته: "جبتو.. جبتو".. وبدأ الكبار من الفريقين يدركون أنهم من نفس القبيلة... فتقاربوا وتعارفوا، وأخذوا يتلامسون، تعبيرًا عن التواصل والفرحة بالتئام شمل الجبتيين.

جلس الجميع تحت خميلة من شجر شعر البنت [٨]، على أطراف المستنقع، وقُدِّم الماء البارد في أوعية من البامبو. كما قُدِّم المزيد من الموز والفاقوس والشمام والبطيخ...

اقتنع الجميع بما قاله جبتو عن ضرورة التئام شمل الجبتيين من جديد في جبتانا... وشعر جبتو بأن تاسوع الآلهة يؤيِّده "بفهم القلب ونطق اللسان"... وحمل الجميع أدواتهم وسكاكينهم الحجرية، وعصيّ الصيد وحبال الليف وشباك الصيد ورحلوا إلى "جبتانا".

في طريق العودة شمالاً بشرق، قصّ "دان" أكبر الجماعة ما حدث ليلة المسوخ والتنانين. وما قاله: "كنت أنا ومجموعة من الشباب والبنات والأطفال عائدين إلى القرية، وما إن وصلنا إلى المدخل الجنوبي المموّه حتى رأينا ما يحدث؛ فأمرت من معي بالهرب عدوًا في اتجاه منطقة الحجارة السوداء... ولم تستطع المسوخ اللحاق بنا... وظننا أن "جبتانا" كلها قد أُبيدَت، وأن المسوخ وشياطين الظلام قد استوطنت القرية؛ لهذا توغّلنا في الجنوب الغربي، وتجاوزنا منطقة الحجر إلى البراري حيث وجدنا تلك الواحة الصغيرة ذات المياه الدائمة؛ فلُذنا بها، وكنا أحيانًا نتجاوزها في الصيد جنوبًا وغربًا، ولم نفكِّر في "جبتانا"؛ خوفًا من المسوخ والشياطين.

الإصحاح الخامس

مع لحظات اختفاء رع في الأفق الغربي خلف أشجار الغابة، ارتفعت ألسنة الدُّخان واللهب في سماء قرية "جبتانا"؛ إذ كانت القرية تستعد لوجبة المساء ساعة وصول الذين غادروا منذ الفجر للحصول على الأسنّة والسكاكين الحجرية.

نبحت الكلاب حول الأسوار النباتية لجبتانا، وزاد صخب القردة على الأشجار، وتطلّع سكان جبتانا، فرأوا على التلّة المواجهة للقرية من جهة المدخل جبتو ولابانو ومَنْ معهم من فتيان القرية، تصحبهم مجموعة كبيرة من الرجال والفتيان والصبية والبنات والنساء، فارتاب مَنْ في المعسكر في الأمر... وما إن صاح جبتو بالرمز الإشاري: "جبتو.. جبتو" حتى اطمأن الجميع، وتحوّل القلق والارتياب إلى ترقّب واستطلاع.

دخل الوافدون إلى ساحة القرية من مدخلها الجنوبي الغربي، وألقوا أمتعتهم بالقرب من نار القرية... وبدأ التعارف والتلامس ووضع الأيدي على الأكتاف والظهور... وبإشارة من جبتو، تحلّق الجميع قريبًا من النار، حيث وُضِعت بعض الأواني الفخارية والصخرية وأوراق الموز، وبدأ الغلمان يضعون الشواء على هذه الأواني، كما وُضِعت كميات من الموز والجذور الدرنية والفاقوس والشمام والبطيخ والعنب... سعد الجميع بهذا العشاء الذي ضمّ كل الباقين من سلالة "جبتو مصرايم" الذي هو من نسل الآلهة، وكانت سعادة الوافدين الجدد أعظم، حيث انضموا إلى بقية جنسهم المقدس، في هذه القرية المتحضّرة التي عرفت النار، ببركةٍ من ربة السماء العظيمة "نوت".

بعد العشاء، أُجِّجَت النار بمدّها بمزيد من الأغصان والحزم الجافة، وحمل بعض الفتيان رأس الخنزير وأرجله وبعض أحشائه، وكذلك رءوس البط والإوز، فأخذها جبتو ووضعها على أحجار القربان داخل النار... اشتعلت القرابين وتصاعد دخانها برائحته المميزة إلى السماء، حيث يقيم تاسوع الآلهة، ساعتئذٍ شعر الجبتيون الجدد بأن الآلهة قد وفّقتهم، وأمدّتهم بقائد إلهي عظيم هو جبتو، بديلاً من أبيه المقدس "جبتو مصرايم".

عرف أهل قرية "جبتانا" الوافدين الجدد من السلالة الجبتية، وهم عبارة عن ثلاث أسر: "دان" و"تونا" وأطفالهما، "توت" و"ليزا" وأطفالهما، "رام" و"دندا" وأولادهما، بالإضافة إلى عدد من الصبية والغلمان والبنات، هربوا مع دان ليلة مذبحة المسوخ.

كان الجميع متحلّقين حول النار، بمن فيهم من الأطفال وبعض جراء الكلاب، واعترت جبتو حالة التأمل والوجد التي تنتابه كلّما شعر بأن الآلهة تمدّه بالحكمة "التي يحتويها قلبه وينطق بها لسانه" (٩) فوقف جبتو وعلى وجه خشوع وسلام، وهو يردّد هذه السورتا أو الترنيمة: "أيتها الآلهة المعظّمة التي تقيم في السماء، يا رع يا سيد الآلهة ويا من خلقت نفسك بنفسك، يا أتوم يا أول التاسوع، ويا خالق تشو وتفنوت وجب ونوت، يا تحوت يا واهب الحكمة في القلب والكلمة على اللسان... أيتها الآلهة التي نعرفها بأسمائها المقدسة، والتي لا نعرفها، لكِ منا نحن الجبتيين التقديمات والتبريكات، كوني معنا أيتها الآلهة، فنحن نسلك وسلالتك الباقية على الأرض... أنتِ أيتها الآلهة -لك الخلود أبد الآبدين حيث لا موت ولا ميلاد، وحُكِم على نسلك المقدس من الجبتيين بالموت والميلاد، فكوني معنا -أيتها الآلهة -زيدينا عددًا حتى نكون كنجوم السماء ورمل الشاطئ... هيلا... هيلا.. هيلا".

حان وقت النوم، فمُدّت النار بمزيد من الأغصان، ودخل الجبتيون القدامى أخصاصهم، أمّا الجدد فإنهم افترشوا حزم اللوتس والبردي متّخذين منها فُرشهم وأغطيتهم... وبعد أن اطمأن جبتو على الجميع، دخل خصّه، وقد تكوّن لديه عزم على الأخذ بيد الجميع، وعلى بناء المزيد من المساكن للوافدين الجدد... وتأكّد لدى جبتو شعور عميق بأنه نبِيُو (١٠) وبأن الآلهة تمدّه بالحكمة "التي يحتويها قلبه وينطق بها لسانه".. وتذكّر جبتو العجل "أبيس" الذي ختنته الآلهة، كما تذكّر وحي الآلهة له، بأن يُختَتَن كل مولودٍ ذكر من نسل "جبتو مصرايم" في اليوم الثامن من ميلاده (١١).

هوامش سِفْر "الاستئناس والتدجين"

١- الرُّخ طائر ضخم من الجوارح، يختطف فرائسه من الحيوان والأطفال، وربما كانت سلالته التي انقرضت، باقيةً حتى العصر الحجري الحديث (النيوليتي).

٢- لابانا واللبن – يرى معظم المؤرخين أن الاستئناس والتدجين من أخصِّ أسس الحضارة المصرية.. عرف المصريون تدجين الطيور من أجل البيض، والبقر من أجل اللبن، واُختُلف في كلمة اللبن هل هي مصرية أم سامية.. ولعل كلمة "كاني" المصرية كانت تدل على اللبن بكل مشتقاته، لكننا استخدمنا "لابانا" و"اللبن"؛ لأنهما تناسبان القارئ العربي.

٣- سائل الحياة الثاني: ترد في المتون المصرية إشارات لسائل الحياة الأحمر أي الدم، كما ترد إشارات للسائل الأبيض، الذي ابتدعته الربة حتحور (وهي ربة تُصَوَّر عادة في صورة بقرة) وجعلته ينقل الحياة من الأمهات لأطفالهن، ومن الماشية -بعد الاستئناس- للإنسان.

٤- جب "إله الأرض"، وأحياناً يكون "جسد الأرض" وكما أن الجسد يخرج شعرًا، فكذلك جسد "جب" ينبت النبات (بردية تورينو – بردية جاردنر).

٥- الأرضان: أرض مصر، أرض الشمال والجنوب... والشادوف السماوي المقدّس يعمل به "حابي" إله النيل والمياه، لنقل المياه التي تحمل الخصب من جنة الآلهة إلى النيل، حيث يقيم نسل الآلهة من المصريين (منابع النيل لم تكتشف إلا في أواخر القرن الثامن عشر).

٦- مِنو: معناها: جبل الغرب، الذي تغرب أو تموت فيه الشمس، ثم تُبْعَث من جديد.

٧- البرَ: يُقصد بها الموت، ربما من كون المدافن -عادة- في البرِّ الغربي.

٨- شعر البنت: يُقْصَد به نبات الصفصاف، وربما كانوا يشبِّهون به شعر البنت.

٩- "الحكمة التي يحتويها القلب وينطق بها اللسان" عبارة يكثر ورودها في المتون المصرية، فالإله تحوت يلهم القلب (العقل) بالحكمة ويجعل اللسان يعبِّر عنها.. وربما انتقل ذلك إلى الفكر السامي، فعُبِّر عنه "بالكلمة" أو "اللوجوس".

١٠- نيـو: كلمة مصرية، بمعنى "نبي" العربية السامية (لويس عوض: مقدمة فـي فقـه اللغة العربية).

١١- الختان للذكور عادة مصرية قديمة، ربما عبرت إلى العصر التاريخي، من عصور ما قبل التاريخ، وكان المصريون يحترمون جثث المختونين حتى ولو كـانوا غيـر مصريين، ويميل كبار المؤرخين إلى أن الساميين أخذوا الختان عـن المصـريين (جيمس هنري، جون ولسون).

سِفْر "المُسوخ وشياطين الظلام"

الإصحاح الأول

نبحتْ الكلاب مـُؤْذِنة بمشرق صباح جديد، وتعالت أصوات القردة على الأشجار متجاوبة مع ضجيج أصوات الطيور، التي تزحم الأشجار والماء والسماء... ومن آن لآخر تتردد أصداء زئير الأسود، وزمجرة الصراع بين وحوش الغاب، ونعيق أفراس النهر... واستيقظت قرية جبتانا. واستيقظ الوافدون الجدد، وشاركوا أهلهم من الجبتيين نشاطهم اليومي من أجل الصيد والطعام.

لم يكد "رع" يعلو قمم الأشجار، حتى عاد الصيادون من الفتيان والفتيات والغلمان والصبية بما التقطوه من ثمار الأرض، وبما اصطادوه من بط وإوز، وبما جمعوه من بيض الطيور.

ومن بين الشجيرات التي نبتت في مدخل القرية، ظهر جبتو ودان ومجموعة من الغلمان، يقودون أحد صغار فرس النهر، بعضهم يسحبه من رأسه بحبال من الليف، وبعضهم يدفعه أو يضربه من خلف... وتكاثر حولهم أطفال القرية، خصوصًا الوافدين الجدد، يهلّلون ويشتركون في دفع ذلك "العجل السمين" إلى أطراف البحيرة؛ حيث تمّ ذبحه وتقطيعه وإعداده للشواء.

أُججّتْ النيران ووُضِع عليها المزيد من الأغصان الجافة.. وبعد أن هدأت النار، وظهرت الأحجار المحمّاة، وُضِعت أجزاء فرس النهر والبطات والإوزات، وكمية من الأسماك فوق الأحجار المحمّاة، أو في داخل النار المشتعلة.. وامتلأ الجو برائحة الشواء، ونبحت الكلاب مطالبة بنصيبها من الطعام... أكل الجميع واستطاب الجبتيون الجدد طعوم المشويات.. وبعطايا رع وببركة التاسوع المقدس شبع الجميع، حتى الكلاب عند الأسوار، والقردة فوق الأشجار.

بعد الإفطار، زاد نعيق البقر والأيائل والنعاج في حظيرة القرية؛ فدخلت جبتانا ولابانا وتونا وبعض البنات إلى الحظيرة، ومعهن أوعية من الفخار والبامبو، وتحامين العجل الذكر أبيس، وأخذن يحلبن الحيوانات. واستمتع الجميع بشرب اللبن الدافئ، وشعر الجبتيون الجدد بالامتنان لتاسوع الآلهة، الذي أرسل لهم جبتو، الذي هو من نسل الآلهة، لكي يأخذ بأيديهم ويصل الفروع بأصل الشجرة الجبتية.

في الضـّحى، نظـّـم جبتـو العمـل، وقـام الجميـع ببنـاء عـدد كـافٍ مـن الأخصاص لسُكْنَى الوافدين الجدد، ولسُكْنَى كل اثنين من البنين والبنات، الذين عرفوا بعضهم [1] في حفلات الرقص حول نار القرية.

بعد الانتهاء من الخصِّ الأخير، وقف جبتو ينظر بإعجاب إلى صفوف الأخصاص، كما نظر بإعجاب أكثر إلى العدد الكبير من الجبتيين، الذي يكاد يملأ ساحة جبتانا، والذي به يتحقق أمن جبتانا، كما تُنجز الأعمال التي تيسِّر شئون المعيشة.. وعاود جبتو شعوره الغامض بالوَجْدِ والسلام والتميُّز، وبأن الآلهة معه، وبأنه "نبو" أو نبيّ من التاسوع.

واتّجه الجميع إلى الاغتسال من الطين عند أطراف البحيرة، ووقع نظر جبتو، وهو يغتسل، على فتاة من الوافدات الجدد، وهي تغتسل متوارية عن العيون المتلصصة بنباتات أدغال البحيرة، وأُعْجِب جبتو بتناسق أعضاء الفتاة، وببشرتها الصافية، وسرعة حركاتها... وضع جبتو مئزره المكوّن من قطعة من جلد بقرة على حقويه، واتجه للفتاة الصغيرة، وسألها عن اسمها فقالت: "نيما"...

حفل الرقص حول النار، الذي تُستخْدَم فيه طبول الآلهة، يكون في المساء، لكن جبتو، الذي هو كاهن القرية وزعيمها، والذي يتصل بالتاسوع عن طريق "جبار" أحد معاوني رع رب الأرباب، قرَّر أن يكون الرقص الآن، بعد الانتهاء من الأخصاص، التي كادت تجف بسبب حرارة الجو في هذا الوقت من العام... وأُجِّجَت النيران في وهج الظهيرة، ودُقَّت عشرات الطبول المصنوعة من جلود الحيوانات على أسطوانات فارغة من جذوع الأشجار... وبعد الرقص أخذ كل فتى صاحبته إلى خصِّه، وأخذ جبتو الفتاة الصغيرة إلى خصٍّ جديد ملاصق لخصِّ جبتانا.. ولم يكن من حق جبتانا الاعتراض، بل لم تفكِّر في ذلك... كذلك لم يكن من حق "وِسَرْ" الاعتراض، فإذا كان كاهن القرية وزعيمها يريد فتاته، فالكاهن الزعيم هو الأَوْلَى بكل تضحية وليبحث "وسر" عن فتاة أخرى.

بعد وجبة الغروب، سمع الجميع عند نار القرية صرخة الاستغاثة من "آسو" الذي كان يطارد الأرانب البرية هو و"وِسر" عند التلة المواجهة للقرية.. وسريعًا ما وصل إلى مكان الاستغاثة عدد كبير من الصغار والكبار، فوجدوا "وِسر" طريحًا قد نهشته أفعى الكوبرا، وحملوه بسرعة ووصلوا عند نار القرية، حيث كان يجلس جبتو، الذي كان من وظائفه، بالإضافة إلى الزعامة والكهانة، أنه

طبيب القرية... وجسَّه جبتو فشعر ببرودته وبأن جسده قد فقد قواه، فقال: "لقد رحلت عن "وِسَرْ" البا [٢] وسوف تصل البا الخاصة به إلى محكمة تحوت... هو الآن ميت، وعلينا أن نواريه في التراب...

على التلة المواجهة للقرية، حُفِرَت حفرة عميقة، وُضع فيها "وِسَرْ" جالسًا القرفصاء، ووضعوا رأسه عند ركبتيه [٣] كما وضعوا معه أهم أدواته: سكينه الحجرية، ورمحه، وعصا صيده، ووعاء شربه.. وعاد جبتو إلى دور الكاهن فوقف يردِّد ترنيمة قديمة يُلقِّن بها الميت [٤]: "أي وِسَر... أنت الآن في طريق العبور إلى الغرب، سوف تُشَدُّ لك الصراطا [٥] بين الجبلين، فإذا كان قلبك مليئًا بحب الناس فلن تقع، وسوف يشهد لك معاونو التاسوع من أكلة الأكباد والقلوب ومحطمي الأدمغة والعظام وساملي العيون وجادعي الأنوف وصالمي الآذان... وإن كان قلبك مليئًا بكراهية الناس والتاسوع فسوف تسقط.. وحين يُنزَع قلبك للميزان أمام تحوت، فقل لتحوت وبقية التاسوع والقضاة المبجلين، قل لهم: أنا لم أعتدِ على الأرملة، أنا لم آكل مال اليتيم، أنا لم ألوِّث أحجار القربان..." ثم أهالوا التراب على "وِسَر"، ووضعوا كمية من الأحجار فوق القبر؛ خوفًا من الوحوش النابشة والتي تهوى أكل جثث البشر.

الإصحاح الثاني

الشمس تغرب في مساء أحد أيام شهر كيهك، من السنة الخامسة من التئام شمل كل الجبتيين في جبتانا، وكان جبتو بجوار نار القرية ومعه الجميع بعد وجبة المساء، ورفع جبتو يديه إلى السماء حيث يقيم الآلهة وردد هذه الترنيمة: "إيه يا رع العظيم... إنك تشرق ببهائك وسهامك الذهبية فتملأ الكون نورًا، وحين تغيب في المساء يخلد الجميع إلى السكون، وتنتشر المسوخ وشياطين الظلام، فأنت النور والحياة، وأنت رب الأبدية والخلود... تنتصر كل يوم على جيوش الظلام، ثم تعود لتشرق من جديد، أنت باعث الحياة في النهر العظيم، فأنت الذي يأمر "حابي" بأن يعمل بشادوفه السماوي لنقل الماء من جنة الآلهة، إلى حيث يقيم نسل الآلهة من الجبتيين... أي رع العظيم، أنت باعث الخضرة والنبات في جسد جب، وباعث الحياة في كل الدبابات وكل من يتنسَّم نسمة حياة... أي رع... احمِ قريتنا من المسوخ وشياطين الظلام، واجعلنا في العدد، كنجوم السماء، ورمال الصحراء... هيلا.. هيلا.. هيلا".

حين انتهى جبتو من قداسه المسائي، كانت الشمس قد غربت، وأظلمت القرية والغابة سريعًا في هذا الوقت من الشتاء... وكانت آلهة الرياح والمطر تعبث بقمم الأشجار... وعند أطراف البحيرة، وخلف دغل من نباتات الخيزران، كانت كونا وكوفا تغتسلان، متواريتين عن العيون المتلصصة لبعض الفتيان... وفجأة سمع الجميع عند النار صوت استغاثة، أعقبه صوت الاستغاثة الإشاري "جبتو.. جبتو" الصادر عن حراس القرية من الغلمان والشبان، ثم بدأ نباح الكلاب، وضجيج القردة على الأشجار...

وحضر "آسو" أحد فتيان حراسة القرية، فقال لجبتو والجميع: "... كنت في مكاني من المراقبة، وكانت الفتاتان تغتسلان، وفجأة ظهر شيطانان من مسوخ الأوثان، وقد غطيا جسديهما بالطين، حتى لا تُشم رائحتهما، واختطفا الفتاتين عاريتين، ثم لاذا بالفرار... ولم تشعر برائحتهما الكلاب؛ لأنهما غطيا جسديهما بالطين..".

تألـَّم جبتو... وتألـَّم الجميع... وبالرغم من أن المطر بدأ يتساقط، إلا أن جبتو أمر الجميع بإعداد المشاعل، على أن يكون مع كل واحد أربعة مشاعل ورمحه،

وتُشعل المشاعل واحدًا بعد الآخر.. وتقدَّم الجميع في شكل ثلاث مجموعات، واحدة بقيادة جبتو، والأخرى بقيادة لابانو، والثالثة بقيادة دان... واتجهوا إلى طريق متعرجة يسلكونها في الصيد، توصَّل إلى منطقة الحجارة البيضاء، حيث يقيم شياطين الظلام من المسوخ والتنانين التي تغتصب بنات الإنسان لتنجب منهن مسوخًا أخرى، فهذه الشياطين ذكور فقط، ولمَّا حكمت عليهم الآلهة بالموت والميلاد، نسيت الآلهة أن تجعل منهم ذكورًا وأناثًا، وتركت لهم حق اغتصاب بنات الإنسان والإنجاب منهن.

تجاوز الجبتيون أرض الجنوب حيث النهر العظيم، وساروا في اتجاه أرض الشمال، عند مدخلها المؤدي لمنطقة الحجارة البيضاء.. وبدأت السماء تبرق وترعد، ولم تعد هناك أمطار... توقف الجبتيون قليلاً لالتقاط الأنفاس، ولأنهم وجدوا نباتات متسلقة جافة تصلح لعمل المزيد من المشاعل... وبعد أن صنعوا أعدادًا إضافية من المشاعل، أشعلوا النار في تلك النباتات الجافة، فأحالوا ليل المغارات البيضاء إلى نهار... وكلَّما شمُّوا رائحة المسوخ اجتهدوا للوصول إليهم ومعهم مشاعلهم التي تخشاها الشياطين... واشتعل المكان كله بالنار والأضواء، فخرجت المسوخ تجري على غير هدى، وتسرَّبت النار داخل المغارات... وصار واضحًا للجبتيين أن المسوخ تفقد حاسة البصر حين ترى النور، كما تفقد قوتها الشيطانية وتتساقط كالفراش... بدأت المجموعات الثلاث تدخل المغارات وتشعل فيها النيران، حرَّروا كونا وكوفا اللتين وُجِدتا في مغارة من المغارات، وأُعطِيت كل واحدة منهن عدة مشاعل.. وفي مغارات الأمهات وُجِدت نساء أسيرات من زمن طويل تم تحريرهن بالرغم من عجزهن عن الحركة؛ إذ كُنَّ محبوسات في مغارات الأمهات مع الصغار من شياطين المسوخ، وكانت هذه المغارات أشبه بالحظائر، رائحتها خبيثة، حيث كانت فضلات هذه الكائنات تملأ الجو برائحتها المنكرة... كانت المغارات مغلقة، تؤدي إليها سراديب طويلة، حيث لا يتسرب الضوء إلى الداخل... وكانت الأمهات في حالة يرثى لها: عاريات تمامًا، أوزانهن زادت إلى حد العجز عن الحركة، ابيضت جلودهن، فصارت في لون جلود المصابين بالبرص.

ورأى الغزاة الجبتيون صغارًا من فصائل أبي الهول والتنين وبقية شياطين الظلام، فتم التخلص من هذه الصغار بالقتل بالنار أو بأسنة الرماح، بالرغم من أن بعض الأمهات حاولن الدفاع عن هذه الشياطين الصغيرة... وزادت جرأة

الجبتيين، فأشعلوا النار في كل مكان.. وبعد أن تأكّدوا من القضاء على شياطين المسوخ، أشعلوا نارًا عظيمة وناموا حولها حتى الصباح.

أشرق رع ببهائه على قمم التلال البيضاء، وكان جبتو أول مَنْ استيقظ، ثم استيقظ الجميع، وظلوا جالسين حول النار، ووجوههم إلى الشرق منتظرين انتهاء جبتو من قدّاسه الصباحي الصامت... ويقطع جبتو صمته ويحدِّثهم، بتأملاته ككاهن. ويقول لمَنْ حوله: "انظروا إلى رع المجنّح، إن هذه السهام الذهبية التي تخرج منه، هي التي تصنع له جناحيه الذين يعبران به أفق النور في النهار، وأفق الظلام بالليل حيث يتحولان إلى سفينة إلهية... انظروا إلى كل بِنبِن أو قمة من قمم التلال، إن هذه البنابن قد نبتت على جسد الإله جب، بأمر من الإله الأول أتوم، وإن كل بنبن منها ينادي رع، فيجعله يصحو من غفوته فيترك سفينة الغرب، وينشر جناحيه للسباحة النهارية في أفق الإله تشو... إننا نقدِّس كل بنبن من هذه البنابن التي تدفع رع إلى الشروق، وبنور رع تمتلئ الدنيا بالبهجة والخضرة والحياة... إن هذه البنابن هي التي تحفز رع على أن يترك تثاؤبه الليلي، وينشر جناحيه الذهبيين مع مولد كل صباح"[6].

ونهض جبتو، ونهض الجميع... وعادوا إلى مجموعاتهم الثلاث، وبدءوا يدخلون المغارات والسراديب، تسبقهم مشاعلهم، وأشعلوا النار من جديد في المغارات؛ لتطهيرها من الفضلات ومن أجساد المسوخ وشياطين الظلام... وأخرجوا عدة جثث، من جثث هذه المسوخ الشيطانية وتأملوها: بعضها ذوات أجساد كأجساد القرود، لكن بوجوه آدمية[7] وتلك هي التي تطلق عليها أساطير ذلك الزمان اسم الأوتان.. وبعضها ذات وزن أثقل، بأجسام السباع والأسود، مع وجوه بشرية وتلك هي مسوخ أبي الهول المدمرة، ومجموعات منها بأجساد بشرية مع رءوس تشبه حيوان آكل النمل ذي الخطم الطويل... أشعل الجبتيون النار في أجساد المسوخ، وأعلن جبتو أن أجساد هذه الشياطين المحترقة هي أعظم قربان لتاسوع السماء.

وجد الجبتيون حظيرة ضخمة، داخل مغارة، وبداخلها أعداد كبيرة من البقر والخراف والنعاج والأيائل... ذبحوا ما يكفي لإفطار فخم، وأطلقوا بقية الحيوانات.. وبعد وجبة الصباح، أشعلوا النار في الحظيرة، وفي الممرات والسراديب، ويمموا شطر قريتهم "جبتانا".

الإصحاح الثالث

كانت هضبة التلال البيضاء، تشتعل نارًا ودخانًا، حين غادرها الجبتيون بقيادة جبتو زعيم جبتانا والذي هو من نسل الآلهة.. ساروا في منحدر أخضر مليء بأشجار النخيل والجميز والحور والصفصاف والكافور والرمان والأغصان المتسلقة للعنب.. ثم انبسطت الأرض الموازية للنيل غربًا فسلكوا شعابها، وكان الجبتيون سعداء بهذا القضاء المبرم على المسوخ والشياطين (٨) لهذا كانوا يهزجون ويغنون في طريق العودة إلى جبتانا... ووصلوا مع الضحى حاملين معهم الكثير من ثمار الأرض وفرائس الصيد.

في المساء، اجتمعوا على العشاء قرب النار (٩)... وكان الزعيم جبتو في أوج سعادته؛ فقد انزاحت عن كاهله وساوس المسوخ وشياطين الظلام، كما أن أعداد الجبتيين، صغارًا وكبارًا، قد زادت زيادة كبيرة، أشعرت جبتو بالاطمئنان على جبتانا ومستقبل أجيال الجبتيين... وكانت فكرة موحى بها إلى جبتو من التاسوع المقدس، ترد على خاطره في صورة سؤال: "لماذا لا تكون جبتانا أخرى؟!".

وطرح جبتو سؤاله على الجميع قرب النار: "لماذا لا تكون هناك قرية ثانية؟!" ثم أردف، وكأنه لا يترك لهم فرصة للتفكير والخلاف: "إن رع والتاسوع المقدَّس قد أوحوا إليّ من خلال "جبار" رسول التاسوع بأن نستغل مغارات الهضاب البيضاء، التي يلمع قرص رع المجنَّح على بنابنها في الصباح، في تأسيس جبتانا أخرى".. وتحدَّث الكبار أولاً: "لابانو" ثم "دان" ثم "جبجا"، وأعقبهم الشباب... ووافق الجميع على إنشاء جبتانا ثانية في منطقة التلال البيضاء... وأنَّى لهم أن يعترضوا على وحي السماء؟!

دار رع بين الأفق الشرقي والغربي عدة مئات من الدورات، وكذلك دار خنصو إله القمر، ذو الوجوه المتعدِّدة دوراتٍ ودورات.. وفاض النيل هذا العام، ويبدو أن الإله حابي قد أعمل شادوفه المقدس، فنقل مياهًا كثيرة من جنة الآلهة إلى جنة الجبتيين: ففاض النيل وامتلأت البحيرات والمستنقعات، بل ودخل الماء تحت أسوار جبتانا... وكان القوم يخوضون المياه حتى التلة الغربية، ثم يخوضون منها إلى الغرب، حيث يقومون بالتقاط ثمار الصيف، كما يقومون بصيد ما يتيسّر من الفرائس.

ذات ضحى من شهر أبيب، وبعد وجبة صباح، أخبر لابانو جبتو بأنه يريد أن يريه شيئًا ما... وخرج جبتو ولابانو ودان وجبجا ومجموعة من الفتيان، وتجاوزوا أسوار القرية، وخاضوا في مياه ضحلة، ثم صعدوا إلى دغل على تلة صنعها طين الفيضان، وأراهم لابانو حزمتين من حزم البوص مربوطتين إلى بعضهما، ثم عبر الماء وجلس على هذا الرّمث، وأخذ يدفع الرمث بعيدًا عن الشاطئ الطيني بعصا طويلة في يده، ثم لبث في مكانه على رمثه قائلاً: ".. كنت قد حزمت عدة حزم من البوص لنقلها إلى القرية، ولما كان من المتوجب عليّ أن أخوض في الماء، وضعت الحزم في الماء فطفت على سطحه، فربطت حزمتين وجلست عليهما، فاكتشفت أنهما قادرتان على حملي... وهكذا نقلت البوص إلى مرفأ القرية.." سعد القوم بهذا الكشف الذي تمّ على يدي لابانو، وبدأ الفتيان في جمع البوص الجاف، وتحزيمه وتربيط الحزم في أرماث، وأخذوا يتجوّلون ويتصايحون على صفحة الماء... وجرّب بعضهم فربط عدة حزم؛ فصنعوا بذلك طوافة كبيرة.

في المساء وبعد وجبة العشاء، اجتمع القوم عند نار القرية، بالرغم من الحشرات اللادغة... وعرض عليهم جبتو من جديد فكرة إقامة قرية أخرى للجبتيين، وعلل لذلك بوحي التاسوع المقدّس له، وبأن جبتانا ثانية تعني المزيد من الأمن والقوة للجبتيين ووافق القوم، وما كان لهم إلا أن يوافقوا.

بعد وجبة الصباح في يوم من أواخر أبيب، قام الجبتيون بجمع كميات كبيرة من البوص والخيزران والبامبو الجاف، وقاموا بتحزيمها وتربيطها مكوّنين عددًا كبيرًا من الأرماث، بعضها من حزمتين، وبعضها من ست حزم، وبعضها الآخر من اثنتي عشرة...

أثناء ذلك جُمِعَت أمتعة الأسر الراحلة وهي أسر: جبتو ولابانو وآسو وجبجا، كما جُمِعَت أمتعة الفتيات والفتيان والغلمان والصبية الذين اختاروا الرحيل مع جبتو.

فوجيء الجميع بجبتو يحفر بمعوله الحجري قبر "جبتو مصرايم". ولمّا وجدوه يفعل ذلك ساعده مجموعة من شباب القرية... استخرجوا عظام "جبتو مصرايم"، وقام جبتو بغسلها بالماء، ثم وضعها مرتبةً من الرأس إلى القدمين على جلد بقرة، ثم لف الجلد وربطه بحبل من الليف، ونُقلت اللفافة ووُضِعَت على طوافة من الطوافات، ومعها الأمتعة الخاصة الباقية لجبتو مصرايم.

ركبت الأسر الراحلة الطوافات والأرماث، وكان جبتو آخر الراحلين على طوافة كبيرة مزدوجة، ومعه أهل بيته، بالإضافة إلى عدد كبير من الكلاب: ذكورًا وأناثًا كبارًا وصغارًا... سارت بهم الأرماث والطوافات شمالاً مع تيار الماء، حتى وصلوا قريبًا من منطقة التلال البيضاء؛ فرسوا بأرماثهم وطوّافاتهم عند شاطئ أخضر مليء بأشجار النخيل المثمرة والرمان والعنب والجميز والصفصاف، كما أنه مكسو بفراش أخضر من نباتات البطيخ والفاقوس والقثاء والخيار والبصل... استمتع القوم بثمار الأرض من رطب ورمان وعنب، ورأوا أسرابًا من الأيائل والبقر والخنازير تجوب المكان؛ فشعروا بالامتنان للآلهة، وأحسوا بأن جبتو لا يصدر عن قلبه، ولا يجري على لسانه، إلا ما يوحي به رع والتاسوع المقدس.

تقدّم الجبتيون وعلى رأسهم جبتو إلى منطقة المغارات، وقد تركوا أرماثهم وطوافاتهم مربوطة بحبال إلى أشجار الشاطئ... وصلوا إلى المغارات في التلال البيضاء. فإذا بالكلاب تدخل المغارات وتطارد عددًا من القردة والذئاب والثعالب وأبناء آوى، التي استوطنت المغارات بعد القضاء على المسوخ وشياطين الظلام... نظفت الأسر المغارات لتستخدمها للإقامة بدلاً من الأخصاص، وعرف الغلمان الفتيات وكونوا أسرًا جديدة في المغارات الكثيرة في منطقة التلال البيضاء... واختار جبتو ساحة كبيرة لتكون مركز القرية، وخَصّص مكانًا منها لنار القرية وأحجار التقدمة المقدسة... وأخذ جبتو يحفر، ومعه مجموعة من الشباب في الجانب الغربي من الساحة... ولمّا كانت الأرض تزداد صلابة كلما حفروا، اكتفوا بحفرة طويلة كأنها رسم إنسان، وحمل جبتو حزمة عظام أبيه "جبتو مصرايم" ووضعها في ذلك القبر، جاعلاً الرأس في مواجهة الشرق حيث مشرق رع، ووُضع في القبر بعض أمتعة "جبتو مصرايم" الشخصية: سكينه الحجرية، وعصا الصيد ذات الرأس الحجرية، ووعاء الشرب المصنوع من عقلة من عقل البامبو... ثم أهيل التراب على بقايا "جبتو مصرايم".

نظّموا مداخل المغارات وصنعوا لها دالاتٍ أو أبوابًا... واختاروا واديًا ضيقًا صنعوا له سورًا من الأغصان، وجعلوه حظيرة القرية الجديدة... وكانوا سعداء بجبتانا الثانية؛ فهي محصنة، بعيدة عن مياه الفيضان، وفي نفس الوقت تطل على تلك الجنة المليئة بالخيرات والفرائس.

الإصحاح الرابع

ارتكن جبتو إلى باب بيته المكعب، الذي أُقِيـمَ في ساحة القرية قرب النار المقدسة، والذي اُسْتُخْدِمَ في بنائه الطين والحجر الأبيض والنباتات... ذلك لأن جبتو لم يكن ليرتاح لسُكْنَى تلك المغارات التي كانت أوكارًا للمسوخ والشياطين. كما أنه كان يشعر بالقداسة تجاه البيوت التي تصنعها يد الإنسان بوحي من الآلهة، كما أن جبتو قد حفظ عن أبيه "جبتو مصرايم" أن بيوت الآلهة في السماء عبارة عن مكعبات (١٠) من الذهب أو الماس أو الفيروز أو اليشب، بحسب مكانة الإله في التاسوع المقدس... ارتكن على باب بيته، وذلك في أواخر شهر مسرى، سعيدًا بجبتانا الجديدة... جبتانا البيضاء... التي أطلقوا عليها اسم "عين شمس"؛ نظرًا لأن الشمس - في الصباح والغروب - كانت تعكس سهامها الذهبية على بَنابِن أو قمم التلال البيضاء؛ فيظهر قرص الشمس وقد جَنَّحته السهام الذهبية... ارتكن جبتو على باب بيته سعيدًا بعين شمس، التي اعتبرها حرمًا لرع... وخاطب جبتو رع بهذه السورتا أو الترنيمة:

أنت رع العظيم، أنت آتون الحي رب الأبدية

إنك مُشرق وذو بهاء، ونورك يملأ الآفاق

نقدِّسك -نحن الجبتيين- فأنت واهب كلّ شيء

نورك هو نور لعيون جميع البشر والدبّابات

وألوانك المبهجة هي التي ترسم البسمات على الوجوه

كما أن ألوانك المبهجة هي التي تعطي الورود والبراعم ألوانها

أنت، يا رع، الإله الذي خلق نفسه بنفسه

وكان قبل أن يكون شيء

أنت باعث الحياة في الجنات وثمار الأرض

وأنت الذي يملأ الوادي بالفرائس من أجلنا

يا رب الأرباب، لك المجد في الأعالي.... (١١) هيلا.. هيلا... هيلا....

بجوار جبتو، جلست جبتانا زوجه الأولى، التي كانت تردِّد خلف جبتو تلك الترنيمة المقدسة بصوت خافت... وعند النار المقدسة، قريبًا من بيت جبتو، جلست "نفتي" البلهاء المقدسة، تلك التي وجدوها في أحد كهوف المسوخ، وهي كومة من اللحم الأبيض، لا تفعل شيئًا سوى أن تنظر إلى السماء، والجميع يطعمونها ويسقونها شاعرين بأن بركة السماء تحل عليهم لكونها بينهم، بعد أن عاشت محنة الأسر في كهوف المسوخ.

سُمِع صوت استغاثة في مغارة مجاورة لمغارة لابانو، وخرجت كونا باكيةً ومعلنةً عن موت كوفا ساعة الولادة؛ إذ إن كوفا البائسة قد حملت من أحد المسوخ... وأعلنت كونا -كذلك- أن كوفا قد ولدت وليدًا حيًا، هو مسخ صغير من مسوخ أبي الهول... وتصايح كل مَنْ في "عين شمس" وتجمَّعوا قرب النار... ووضعوا تيسًا مذبوحًا على حجارة التقدمة؛ لتطهير القرية ولدفع غضب الآلهة.

دخل جبتو ولابانو عند جثة كوفا؛ ففوجئوا بالبلهاء المقدسة "نِفتي" خارجة من الكهف ويداها تقطران دمًا، ولمَّا دخلا وجدا المسخ الوليد مصروعًا، وقد فصلت "نِفتي" رأسه الآدمي عن جسده الحيواني... وارتاح الجميع لما فعلته "نِفتي"، وأحسوا بأن ما فعلته ليس إلا من وحي نوت وحتحور.

كبر جبتو وكبرت معه تأملاته واتصالاته بالآلهة؛ فجعل لعين شمس معبدًا لرع والتاسوع المقدس، ونُصبا لتقديم القرابين والمحرَّقات، كما ألزم الرجال والنساء بأن لا يعرف أحدهما الآخر إلا بعد القران المقدس وحفل الطبول في المعبد، كذلك سمح بنار خاصة بكل أسرة مع الاحتفاظ بالنار العامة، وأصبح لكل أسرة حظيرتها الصغيرة فضلاً عن الحظيرة العامة... ونظرًا لظهور بعض المشاكل والخلافات والصراعات، جعل جبتو للمعبد وظيفة أخرى، وهي وظيفة القضاء؛ واختار بعض المبجَّلين الذين "تأثَّرت قلوبهم بحكمة توت، كما تأثَّرت ألسنتهم ببراعة بتاح" (١٢) ليكونوا قضاة المعبد وكهنته.

الإصحاح الخامس

بعد وجبة الصباح، في يوم من أوائل شهر توت، أُعِدَّت طوافة ضخمة مكوّنة من عشرين حزمة كبيرة من حزم البوص والبامبو، عند مرفأ عين شمس، وكانت تلك الطوافة كافية لحمل وفدٍ مكوّن من جبتو وجبتانا وكونو وكونا وزوجها، ولابانو ولابانا وابنهما كوفو وعدّة مرافقين آخرين. كذلك وُضِعَت كمية من سلال الرّطب والعنب والرمان في زاوية من زوايا الطوافة، قريبًا من العود الذي علّقوا عليه عصيًا شدُّوا عليها جلود بعض الحيوانات؛ لتقوم بدور الشراع فتجمع أنفاس "تشو" التي تحرّك الطوافة إلى جبتانا القديمة، التي تعارفوا على تسميتها الآن بمنف... فقد حنَّ جبتو لرؤية القرية القديمة ومَنْ فيها.

أُشعِلَتْ النيران في منف بعد وصول جبتو ومَنْ معه، وقُدِّم طعام المساء قبل الغروب بوقت طويل... وتجوّل جبتو ولابانو وكوفو، ومعهم دان في منف، وكانوا سعداء بازدياد الأعداد في منف؛ فالأطفال في كل مكان...

في احتفال الطبول والرقص حول النار، أُعجِبَ كوفو بالصبية "يارا"، وأُعطِيَتْ "يارا" زوجة لكوفو... وفي الصباح غادر وفد عين شمس منف مودّعين من قِبَل أهلهم الأولين... وكانت رحلة العودة أكثر سهولة؛ حيث سارت الطوّافة في المياه الضحلة للنهر العظيم في اتجاه الشمال...

وفي طريق العودة، توقفوا عدة مرات لجمع الثمار والبيض والإوز والبط من بعض الجزر الرسوبية التي مروا بها، كما جمعوا عدة سلال من أسماك النيل... كانت رحلة سعيدة، أيقظت لدى جبتو شعوره بأنه نبي، وبأن التاسوع المقدس يوحي إليه، وأن الآلهة تهتم بمصير السلالة الجبتية التي هي من نسل الآلهة، ولا أدل على ذلك من أن الآلهة مكنت الجبتيين من معرفة الأرمات والطوافات التي يستخدمونها الآن في الانتقال على صفحة النهر العظيم... بل إن الآلهة قد ألهمت أرواح التماسيح، التي باتت تشعر بالقداسة تجاه الطوافات والأرمات، أو لعلّ حابي إله النيل والمياه، قد أوحي إلى التماسيح وأفراس النهر أن تترك الأرمات والطوافات تسير فوق مياه النيل بأمان [١٣]... وفي بعض الأحيان، كانت التماسيح تسير في خطوط موازية للخط الذي تسلكه الطوافة الهابطة في النهر إلى مرفأ عين شمس.

هوامش سِـفْـر "المسوخ وشياطين الظلام"

١- "عرفوا بعضهم" تعبير يَــرِدُ في المتون المصرية كناية عن علاقة الرجل بــالمرأة، والغريب أن هذا التعبير نفسه يستخدمه العهد القديم "التوراة".

٢- البا: الروح المفارقة الأثيرية، والتي هي الجزء الإلهي في الإنسان، ويتحرر بموت الإنسان ويصعد إلى السماء، كما يظهر في متون الدولة الوسطى والدولة الحديثة... لكن هذا لا يعني "نرفانا" الهندوس التي تعيد الروح بعد التناسخ إلى أصلها الإلهي.

٣- هيئة الدفن في عصور ما قبل التاريخ المصري، هي الدفن جلوسًــا علــى هيئة القرفصاء والرأس عند الركبتين (جيمس هنري. جون ولسون. سليم حسن).

٤- تلقين الميت، يُــقــصَــد به توجيه الأحياء لقيم مفيدة للجماعة البشــرية، وتلقــين الميت جزء من الحضارة الأخلاقية المصرية (جيمس هنري: فجر الضمير).

٥- الصراطا من الكلمات العالمية التي ابتكرها المصريون منذ القديم، وانتقلــت إلــى الساميات واليونانية واللاتينية، ونسمع أثرها في Thread الإنجليزية (راجع: لويس عوض: مقدمة في فقه اللغة العربية).

٦- بنْــبِن Ben Ben كلمة ذات قداسة خاصة عند المصريين منذ القديم، تعني القمــة العالية التي تصطدم بها أشعة الشمس، وهذه البــنَــابــِن هي قمم المسلات وقمــم الأهرامات؛ حيث يشرق قرص رع المجنــّح أول الأمر من خلفها.

٧- المسوخ والحيوانات التي تجمع بين مظاهر إنسانية وحيوانية، كائنات تروي عنهــا الأساطير القديمة (راجع: مسخ الكائنات -أوفيد، ترجمة الدكتور ثروت عكاشة).

٨- كلمة "شيطان" كلمة مصرية أصيلة، أصلها "ست" رمــز الشــر، ثــم أُضــيــفَ "التنوين" فصارت "ستن"؛ وهي أثر مصري في كل لغات العــالم (راجــع: لــويس عوض).

٩- الجماعات الأولى القبائلية تكون عادة جماعات اشتراكية ذات صبغة دينيــة؛ حيث يقوم الدين بالتجميع والتنظيم، وجماعات الكويكرز والعزَاقين الأمريكية مــن أمثلــة ذلك.

١٠- الكابا والكوبا والمكعب... تأثير مصري في كل اللغات، وكان المصريون يقدّسون الشكل المكعب، وأساطيرهم الأولى تتحدث عن بيوت الآلهة المكعبة... والأهرامات والمسلات، نوع من التعبير عن قداسة الأبنية المكعبة.

١١- (راجع: جيمس هنري. سليم حسن. نجيب ميخائيل).

١٢- بداية ظهور الملْكيَّة الخاصة وتخصيص النساء بالزواج، أمران أديا إلى المشاكل؛ ومن ثَمَّ ظهرت الحاجة إلى القضاء (راجع: الدراسات الأنثروبولوجية والتاريخية القديمة).

١٣- التماسيح وأفراس النهر، لا تهاجم الأرماث والطوافات؛ لأنها تخشى الأشكال غير المفهومة لها، لكن أمثال مانيتون يعتقدون في التوجيه الإلهي لهذه الكائنات.

سِفْر القمح والكوشير